صفحات من الذكريات

الدكتور زكي المحاسني

ألستُ أجورُ على ما جَريَاتٍ من ماضيَّ حين أسمّيها بالذكريات ؟ إنني ما أزال أحيا بين أظهُرِها ، وأتقلّبُ على لياليها ، وأنسرِحُ جاداً أو مُتوانياً في أنهارها ، وهي معي في كل مكان ، وكل زمان . إذا فتحتُ عينيَّ من نومٍ مشتْ حقائقُها أمام عينيَّ ، وقد كنتُ قبلَ اليَقظَة أحلَمُ بها وأعيشُ خلالَها ، فإن من الحوادث ما لا يصحُّ أن تلفُّهُ كلمةُ الذّكرى . كالحبِّ ، وهل يُنسى الحُبُّ ؟ إن الصورة الحبيبةَ لا تُفارق المولَعَ بها ، فهو يتنفّسُها مع أنفاسِهِ كلَّ حينٍ ، كأولئك الجنود المكدودين في ساحات الحرب ، فإنَّ فيهم في خنادقهم مَنْ ربَطَ إلى عُنقِه بسلسلةٍ أيقونةً ليس فيها صورة قدّيسٍ سوى صورةِ المحبوبة البعيدة ، ولقد شهدتُ روايةً فتح فيها جنديٌّ أيقونةَ حبيبتِهِ وهو يجودُ بنفسه ، وجعل يقبّلُها والدماءُ تنزفُ من رأسه وبدنه ، بعد أن سقطت نحوه قنبلةٌ من طائرةٍ مُعادية ، ولَعَمْري كان العجبُ أبعدَ حينَ عرفتُ في الرِّواية أن تلك الصُّورةَ التي كانتْ آخر ما مَسَّ شفَةَ الجندي الصريع ، كانتْ لغانيةٍ يهْواها ، وقد زوَّجها أهلوها في الدِّيار البعيدة منذ عشر سنين . فردَّتني هذه المشاهدة التي أثارت خواطري إلى ما عهِدْتني أعرفه من سيرة الأدب العربيِّ حيثُ كان توْبَةُ العقيليُّ يلوبُ على صديقتِه ليلى التي زُوِّجتْ ومُنِعَ من أن يزورها أو يراها ، فكان يقعُدُ على روابي حَيِّه ليتنسَّمَ من نحو بلدها ريحَ الصَّبا ، وهو يُنْشِدُ لنفسه شعرَه فيها الذي يقول فيه :

أيذهَبُ ريعانُ الشَّبابِ ولَمْ أزُرْ
غرائرَ مِنْ هَمْدانَ بيضاً نُحورُها

عَلَيَّ دِماءُ البُدْنِ إنْ كانَ زوْجُها
يَرَى لِي ذَنباً غيرَ أنّي أزُورُها

وكنْتُ إذا ما زُرْتُها قُلْتُ يا اسْلمي
فَهلْ كانَ في قوْلي اسْلَمي ما يُضيرُها

وما أحسبُ الحديثَ بَعُدَبي عن الذِّكريات ، إذ كنتُ لا أومنُ ببُعْدِها ، وإنّما أقول بحضورها

كلَّ حينٍ ، فلو كانت شَريدةَ مستبعدةَ لماحضرت في الزّمان للحال والآن ، فريثما تلمع في الخاطر تحضُرُ بمواكبها ، كأنَّها حَيَّـــةٌ بالأمس ، أو في هذه الساعة .

ولقد كتبتُ فصولاً من ذكرياتي منتزعـةً من لحمي ودمي ، وَبِتُّ فَرِحاً بهـــا ، نَشِطاً لرؤيَتِها مصفوفةَ بالحروف على الطروس ، فبدلاً من أن تمرَّ بخاطري ، أجدها تحت ناظري ، مثل مرآةٍ صقيلةٍ تعكس لي وجهي ، فأرى فيهـــا حالي . وكم يسوءُ الإنسان وهو يَتَمَرَّى بمرآةٍ جميلة أن يدهمه أحدٌ فيُقَلْقِلَ المرآةَ في يدِه ، أو يُفسِدَ عليه صورةَ نفسه ، لا لشيءٍ سوى أنّـه لا يملك مثلَ هذه المرآة ، ولو صَدَقَتُ قرّائي الأعِزَّةَ الخَبَرَ ، وهم الذين عوّدوني أن أُفضِيَ إليهم بخواطري وذكرياتي وشعري ، لقلتُ لهم وإنّه لا يملك مثل ذلك الوجه الذي يتَمرَّى .

كذلك ننعَم حيناً بالذكريات ، فيدمر علينا دامرٌ محشوٌّ ماضيه أموراً تافهة ، إذا شـاء أن يُسطِّرَها أعجزَه أمرانِ ، واحدٌ بقعوده عن ألبيان والثاني أنه لا يعرف من أين يبدأ فيها ...

إن كتابي كبير ، تتراكم صفحاته ، وتتزاحم بي خواطري ، نَهَضَ له ناشرٌ لم أعرفه قد نشر في عالم الحياة الظاهرة كتاباً في مصرَ أو الشام أو في لبنانَ ، إنَّ مطبَعَتَه داخلية موغِلَةٌ في آلاتهـــا الدقيقة التي لم يستطع الفكْر البشريُّ حتى اليوم أن يصورها بمجلة أو في جـدار معرِض . فهي تَطبَعُ الصفحـــات بسحرٍ أُسطوري وبمعجزة لا يقدر على فهم كُنْهِها إلاّ الله وحده ، فمن طَبَعَاتِها الدائمة صفحةٌ لعلَّها من أحبِّ الصفحات إلى نفسي ، إنَّها تصوِّر حالي ، وأنا ابن اثنتين وعشرين سنةَ وكنتُ يومَئِذٍ أَلبَسُ على رَأسي الطَّربوش ، وقد زال الآن أَثَرُهُ عن الرُّؤوس ، إلاّ نفراً قليلاً يلبسونه من أهل الجيل السابق لجيلنا . وكنتُ أُمِيله قليلاً إلى الجهة اليسرى ، إذ لم يكن يُعجبُني اعتداله على رأسي ، فأجِدُني بباب المدرسة التجهيزية بأنطاكيَّة في صباح وضاح الإشراق ، وكانت هذه المدرسة في ضَاحٍ من الأرض فسيحٍ ، تحيط بها بَرِّيَّةٌ مُمرِعَةٌ ، فأُبكِّرُ إلى الحضور . وقد أُرسِلْتُ من دِمَشْقَ إليها أُستاذاً للأدب العربي أواخر العهود ، فكنتُ أقِف لأرى على البُكور أحمالَ الفحم يجيءُ بها بائعوها من القرى ليَقْوى بها أهلُ ذلك الصُّقعِ على بَرْدِ شتائهم . ولقد مَرَّ بي هنالك شتـاءٌ في خمسةَ عَشَرَ يوماً لم أرَ فيه الشمس ، وكانت الرُّعود قاصفة تَرُجُّ الصدور والبيوت ، فسكنتُ أولَ الأمر في حيِّ المسجد الكبير . لقد ذهبتُ

إلى أنطاكية لأفتح بيدي باب مستقبلي ، بعد أن نلتُ شهادة كلية الآداب يومذاك وكنت تسلّحتُ بشهادة كلية الحقوق فدخلتُ على أمّي ، يرحمها الرحمن ، وهي تفكّر واجمةً وتسأل الله لي التوفيق ، وقد نزلت بنا يومذاك قلّةٌ لم نعهدْها ، فدَخلتُ إلى منزلنا بدمشق فرِحاً ، وقلت لها :

— يا أمّي الحنون ، سأكون أستاذاً للأدب في أنطاكية ، وسيبلغ مرتبي اثنتي عشرة عثمانية ثم يزيد .

فنهضتْ رافعةً يديْها بالدُّعاء لي وقد غَلَبَهَا فَرَحٌ أبكاها .

ولقد رُحتُ بها وبأُختي إلى هاتيك الربوع الفيح من ضفاف العاصي بأنطاكيّة السابية التي عددتُها على رفيفِ الخيال الأبدي جَنَّةَ على الأرض كمقدمة لكتاب الجنة الإلهية الكبرى وكان بظاهر المدرسة التجهيزية وعلى عُدْوَةٍ منها منازِلُ واطِئةٌ من طَبَقٍ واحد بعضها إلى جانب بعض ، وفي أحدها كان يسكن الأستاذ الكبير ممدوح سليم أستاذ الأدب التُّركي الحديث في القسم التركي من التجهيز وهو منذ ترك أنطاكية يسكن دمشق . فعرّفني بطائفةٍ من الأُدباء الترك وقرأ لي قصائد من عبد الحقّ حامد وإسماعيل صفا ، وكان ثمة شيخٌ من أُدباءِ قومه اسمه عِلْمي بك كان متخصصاً بالأدب التركي القديم .

أمّا الشعر العربي والأدب الأُموي والعباسي فكانتْ الحلقاتُ تُعقد لها في دارة التجهيز بين المدير الرِّفاعي الذي كان شاعراً وأديباً وكان خطيباً وبين طائفة من الأساتيذ العرب الذين أحيَوْا في ربوع أنطاكية لغة الضاد . وكنتُ الحَكَمُ فيما يُثارُ من الجدل حول الشعْر والنَّثْرِ والخطابة في لغة العرب ، فإذا كان يوم الجمعة أو أيّام الأعياد خرجتُ والمديرَ إلى ضفاف العاصي في مُتنزّهات يسمّونها باللافوت ، ولعلّها من التلَفُّت حيث يطيله المرءُ في تلك الضِّفاف وهو يُسَرِّح أنظاره في البساتين المحدقة بالمدينة والتي تمتد على ضفاف العاصي قبل أن ينسرح ماؤه نحو السويدية التي على البحر ليصبَّ في الحوض المتوسِّط . ولم يمضِ عليَّ في تلك المدرسة شهوراً حتى حَنَنْتُ إلى دمشق حنيناً مُلْحِفاً ، وجعلتُ أقول الشعر في ذلك الشوق ، وقد وجدتُ سانحة الشعر مُواتية فيه يوم أقبل على أنطاكيةَ الطَّيِّبُ عَهْدُهُ الوزير مظهر رسلان يرحمه الله فحضَرَ إلى مدرستنا ومعه الأُستاذ سامي العظم كبير رجال القضاءِ ومعه محافظ السنجق وكانت أنطاكية والاسكندرون وما لَفَّ لَفَّها من الدّساكر والبلاد تدعى « بالسنجق » وأصلُ

الكلمة اللّواء الكبير الذي تَعوَّدَ جيش المماليك رفعه في مقدمة السَّيْر وطائفــة كبيرة من كبار الموظفين والمدرِّسين. وقد شاهدتُ يومئذ مدير التَّجهيز يفرك بيــده كالخائف الوَجِل، وهو يأمر الطلاب بعد أن جمعهم في ساحـة المدرسة أن يذهبوا بأجمعهم إلى ردهة المطعم، وكان المطعم ردهةً كبيرة فيها مقاعد كثيرة مرتبة، وفيها منبر للخطابة، فهي تصلح للطعام وللكلام، فوقفتُ مع الأساتيذ ريثما انتظم الطلاب في تلك الردهة الكبرى. ومشى الوزير وكأنّـه قائد عسكر ومعه قواده وأركان حربه إلى ذلك البهو الواسع، ولا يعلم أحدٌ مراده من هذا الأمر سوى المدير، ولم يكد يُحَيِّ الطُّلَّابَ، وقـد نهضوا وقوفاً له ثم جلسوا، حـتّى التفتَ إلى أستاذ التاريخ الإسلامي «نافذ غنّام» وقال له:

— اصعد على المنبر وحدِّثنا عن الرسول ﷺ وأثر السيدة خديجة زوجته في حياته.

وكان الأُستاذ نافذ الغنّام عارفاً بالتُّركيـة معرفة أهليها بها ومؤرّخــاً عربيًّا مشهوداً له بالثَّقافة التاريخية، وكان طربوشه يضيقُ من أعلاه كثيراً ليتَّسع من أدناه، ونظّارته السميكة الملقوطة على أرْنَبة أنفه. فأخذ يتكلم، فــلم يَطرَبْ لكلامه الوزير، وكأنه قد أُرْتِجَ عليه في ذلك الحين، فتركته في ارتباكه، وأدَرْتُ فكري فيما ينبغي أن أقوله، إذ أدركْتُ أنَّ النَّوْبَةَ آتيةٌ إليَّ بعد حين، وأنَّ الوزير يريد أن يَرى مبلغ كلٍّ منا من درسه، وقـد كُنَّا جديدَيْن في التَّجهيز، فقطع عليه كلامه، وأراده على النّزول، ثم أشار إليَّ بالمثول مكانه، فقفزتُ خفيفاً إلى المنبر، ولم أدَع له سانحـةً يَفْرُضُ عليَّ فيها قولاً، وإنَّما عاجلته والحضورَ، فقلتُ بصوتٍ مُتَتابعٍ جاهرٍ:

— تكلَّمَ الزميلُ الأُستاذُ على الرسول ﷺ وعلى أثر السيدة خديجة زوجتِهِ في حياته ورسالته وإنني متكلِّمٌ بعده على القرآن الكريم وأثره في الأدب العربي وفي اللغة العربيـة. واندفعتُ إلى قول أحد المستشرقين بأن المسلمين والعَرَب لو لم يكن لهم القرآن لذابوا في الأرض، لأنَّ لغة الإغريق الهيللينية ذهبت ريحها وذهبَ أهلوها، وكذلك اللغة اللاّتينية، أمّا اللغة العَرَبية فباقية. وسبب بقائها عبقريّةُ القرآن، فلولاه لاضمحلّت من الأرض لغة الضاد.. وبقيتُ مندَفعاً مُشَقْشِقاً بالبيان ومحكَم القول ومُعْرَبه، ما يقرب من نصف الساعة، وقد أرسلني الوزير سجيّتي في كلامي حتّى كدتُ أفرغ، فقطع عليَّ الكلام، متبسِّماً وتلقّاني بالتهنئة وصحبُه، ولم

يُقبِلْ عليَّ يومئذٍ أحدٌ مثل إقبال المدير الأستاذ العظيم عارف الرفاعي — نَضَّرَ الله عظامه. وأما سبب ذلك الإقبال فعجيب :

قال لي المدير الرفاعي :

— سألني الوزير عنك فأخذتُ بالإشادة بك حتَّى عَلَوْتُ النُّجوم . ولما ندبك للكلام خِفْتُ أن لا يَفْتَحَ الله عليك فيقول عنِّي ما يقول، وأهون ما يجيء لي منه لا سمح الله ـ كلمة «الحمار»

لقد علَّمني هذا المدير من أمور الطلاب وكيف يُساسون أكثر ممَّا عُلِّمته في حياتي المدرسية وفي الجامعة وفيما يسمُّونه البيداغوجيا وكان من دروسه في ذلك أنني دخلت عليه يوماً والغضبُ يقفز من عينَيَّ وفمي ، فقلتُ له :

— إقبل استقالتي حالاً .

فنَهَض وجلس بجانبي ، يُطَيِّب خاطري ، وسألني السببَ ، فقلت له :

— طالبٌ رمى ورقةً لآخر ، فقلت له هاتِها فمَزَّقَهـا ، فقلتُ له اخرُج من مجلس الدَّرس فامتنـع من الخروج . أنا لا أقبل من هؤلاءِ الطُّلاَّب ما ظهر منهم .

فقام إلى مكبس الجرس فأحضر جاويدبك رئيس النُّظّار ، وقال له :

— عَلَيَّ بفلان وفلان .

فحَضرا مُرْهَقَيْن خوفاً وقد امتُقع وجهاهما، فَنهض المدير نحوهما ، وعلا صوتُـه بالزَّجْر والوَعيد حتَّى رَغـا فمه وأَزْبَدَ ، وأحسَسْتُ كأن الكهرباء قد نزلت بنـا جميعاً بصواعقها ، فأسفْتُ على ما بدر منِّي ، وما سببتُ كَدَرَهُ للمدير وأَخذتُ بيني وبين نفسي أُشفق مما فعلتُ ، ثم قال لهما :

— لن تدخلا الصف إلاّ بأمره ، وخرجا تائبين بعد أن صافحاني ، وقد رضيتُ عنهما وزال ما في نفسي . فالتفت إليَّ المدير بعد خروجهما فإذا هو يبتسم لي وهو يُشْعِل لُفافة تبغه فيقول:

— كلُّ ما رأيتَه مني ، تمثيل ، بتمثيل . . وإذا لم توطِّد نفسك في هذه الحرفة الشاقـة على التَّغاضي وتسرية الأمور ابْتُليتَ بالسُّلال .

وقَصَّ عليَّ منظراً طريفاً ، قال :

— دعاني أُستاذ لأشهد درساً ، وفيما كان يكتُب على اللوح الجداري الأسود كلاماً ، وأنا قد وجهتُ نظري إليه ووقفتُ بجانبه والصفُّ وراءنا ، إذا طالبٌ يُظهر هذا الصوت الجهير:

— إيِّ .

قال فلم ألتفت أنا ، ولا التفت الأستاذ ، ومضى يكتب على اللوح ، كأَنَّنا لم نسمـع

عيناه..

قصة

محمد نديم

سأعود .. كأن آلافاً من العيون تدعوني ، عيون حزينة أضناها السهر ، وبابتسامة بلهاء أحاول اقناع نفسي بأني لا أعود من أجله .. فتعصف برأسي آلاف الاصوات :

« أنت كاذبة .. »

ابتسم وأهز رأسي برتابة وبصرى يتماوج الى البعيد ثم ينحسر متخطيا النافذة وقد انعدم فيه البريق ..

ويسترخي جسدي في عمق المقعد وتنطبق عيناي في استسلام :

« من أجله فقط سأعود .. يرغمني شيء أقوى مني ، أقوى من كل شيء » .

يعلم بأني لن أعود ، انما سأجده بانتظاري ، سألمحه من بعيد ، طويلا رقيقا كغمامة صيف ، وعيناه نبعا عتاب ، عتاب مر حزين ، ستذوب ارادتي وسأجري اليه ...

افترقنا منذ عام .. بل فررت منه ، وكأني لم أفارقه ، لقد عاش معي هذا العام كل دقيقة منه ، لم يبارحني فيه ، حتى لقد كان يشدني اليه أكثر فأكثر، عاش في القلب والفكر معا ..

وينتقل شعوري الى عامين قبل ذاك العام ، الى يوم من أيام العمر حين التقينا ، ووجدت نفسي ، في عينيه ،

لم أكن الفتاة الوحيدة في عائلتنا لذلك كان يأخذني الزهو في أن الزواج لم يساوني بشقيقاتي وتميزت عنهن بشهادتي الجامعية وأنا في العشرين.. وسرعان ما حصلت على عمل في شركة للمقاولات ، وقد خالجتني رهبة لم تساورني من قبل وأنا أقف في بهو الشركة ، وعالجت اضطرابي باصلاح وضع القبعة على رأسي ، وتبعت البواب الى غرفة المدير.. وبلهجة رجل أعمال قديم رحب بي وضغط زرا أمامه

شيئاً . ولو أننا التفتنـــا لنبحث عن الفاعل المتجاسر ، لما ظهر لنا ، ولكان لنا موقفُ زَجْرٍ يؤول بنا إلى وضـع الجزاء على الصفّ كله ، وربّما كان بعد ذلك أمورُ لا تُحمَدُ عقْباها ، فالشيء الزهيد الذي يمكن للعاقل التّغاضي عنه دون أن يُدخِلَ الضّيم به على المروءة جائزٌ ، ولا مَغبّة منه في التغاضي عنه .

كذلك كتبتُ هذه الصفحاتِ من الذكريات ، وأنا أتمرّى في مرآة نفسي ، وقد وضعتُها بين أيدي قرّائي الأحِبّة ، حيث لا تستطيع يدٌ دامرة أن تحرّك المرآة فتفسِدَ عليّ الصُّورة ، وتُنَغِّصَهُمْ فيها يُسيغون من ذكرياتي .

أواخر ايلول ١٩٦٤ بدمشق

الدكتور زكي المحاسني

أقبل على الأثر شاب مرح التقاطيع مهندم للغـاية . قال له وهو يشير نحوي :

ــ الآنسة هي الموظفة الجديدة . عرفهـا على المكان .

دلفنا الى البهو الصامت . وقال بعد أن جلست خلف مكتبه وهو ممسك بقلم ويشير :

ــ هذا مكتبي . أنا سكرتير الشـركة « لطفي برهان » ..

أجبت بهمس :

أهـلا ...

ــ وتلك الصلعة المنحنيـة تخص الأستاذ مرعي رئيس الديوان ..

وتابع يشير الى آخرين . وجذبتني الوحشة من جديد لتبعدني عنه ، حتى بدا صوته ضعيفا كأنه آت من بعيد ، ووضع البـواب فنجاني القهـوة أمامنا فقلت :

هـل انتهيت ؟

قـال :

بقي واحـد ..

وأشار الى مكتب بعيد منا كان خاليا . وقال :

رئيسك المباشر ..

ثم أومأ الى مكتب صغير بجانبه :

مكتبـك ..

قلت بعد سكوت قصير :

ــ لم تحدثني عنه ..

ــ مـن ..؟

ــ رئيسي ..

ــ آه .. أحمـد . لن يسرك على ما أعتقد .. انه صعب المزاج . وهو كما يقولون مقطوع مـن شجرة .. وآخر ما هنالك فهو انطوائي . وتوقف وهو يشير الى شخص دخل للتو :

ــ انه هـو ..

شعرت بوجوده بشكل غريب . كأني أعرفه من زمن بعيد . وحيرني تناقض الصورة التي رسمتها له في مخيلتي .. كانت عيناه جميلتين ، تائهتين ، تأتلقان بأمواج من الحزن الصامت . وفمه جاف الا أنه رقيق. وعندما احتـوى يدي بكفه كان لـه ملمس دافىء أحسست به ينتقل الى جسدي ..

وجلست خلف مكتبي ، وغرق رئيسي في بحـر من الأوراق أمامه . نظرت اليه فصدمتني عيناه .. فخفضهما بسرعة وعلى فمـه طيف ابتسامة ، فقلت بتردد :

ــ هل أفعل شيئا ؟..

قال برقة ما :

ــ من أول يوم !؟ الا اذا أصررت فهاك أوراقا افرزي كل تاريخ فيها على حده ..

ومرت الساعات ونحن الاثنين نعمل . وقد كنت من حين لآخر ــ برغمي ــ أرفع عيني اليـه فكانت تتصيدهما عيناه .. ومرات كنت أتوسمه دون انتباه منه ، فكنت أجد فيه أشياء كثيرة محببة خفيت عني..

كان في الثانية والعشرين الا أن المسحة من الكآبة جعلته يبدو أكبر قليلا .. وتلك الدقة في تقاطيعـه ونحوله تخفي خلفها حساسية وشعـورا مرهفا .. وكان فجأة يأخذه شرود طويل يقصيه عني بعيـدا فكنت أرنو الى عينيه فيخيل الى أن قلبي يسير معهما..

ومرت أيـام أخر ...

كنت اذا خلوت بنفسي بعد أن يقطع الليل شوطا طويلا ، أعيش مع أحمد بوجودي كله .

لم يبق خافيا أن معاملته لي تعني أشياء كثيرة • كنت سعيدة بذلك • وكنت أجد نفسي يوما فيوما أكثر قربا منه • الى أن أتى اليوم الذي وجدت نفسي فيه أني أحبه •• لم يتعد فكري أكثر من ذلك •• اني أحبه • وجدت أني تتمة له وأن لا طعم للحياة بعيدا عنه • بدأت أجد في عينيه دنيا جديدة• باسمة • ولقد كان لقاؤنا الدائم ونزهاتنا الصغيرة أجمل متعة تقصينا عن دنيا الناس •• وقد كان يقول دوما :

« أنت لاتدرين كم أنا بحاجة اليك • وكم أنت بالنسبة لي » ••

وتشرد عيناه لحظة • ويضغط يدي وهو يقول :

ـ كم أخشى أن تتركيني • أشعر برعب كلما تصورت أنك قد تتركيني ••

فأجيب وأنا أمرر يده على فمي :

ـ الا اذا باعدني الموت عنك ••

ومر عامان •• كانا ربيعا دائما ••

لم أفكر • بل لم أكن أدع مجالا لذلك • وفي النهاية وجدت أنه لامبرر هناك يمنعني من أن لا أفكر •• لقد قلت له من زمن بعيد أننا لن نستفيد من حبنا شيئا •• ولم يجادلني فقد كان يعلم أن اختلافنا في الدين سيبقينا بعيدين • وقد نفترق •

كان أمرا محالا أن نستمر هكذا الى الأبد ••

كان لابد أن أفعل شيئا •• أصارحه •• سيقول :

ـ دعي الأيام تفعل •• انه عملها •

ـ لا أمل •

سيجيب وصوته يملأ نفسي :

ـ نحن نخلق الأمل • عندما نرتفع بحبنا الى مستوى التضحية ••

« لا أمل أن يفهمني •• لا أمل » ••

ولم أجد الا أن أبتعد •• اختفي من دنياه •• وافترقنا •• دون وداع •• بل دون أن يدري • كنت أعلم يقينا انه عرف كل شيء •• كل شي ••

عندما ارتفعت الشمس في السماء كثيرا كنت أستلقي على مقعد الطائرة عائدة اليه • سأسمو الى حبي •• سأضحي ••

ومرت أيام ثلاث •• ولم أره • كأنه لم يعلم بعودتي !؟• محال أنه لايعلم •• قد ألقاه في أية لحظة ، طويلا رقيقا كغمامة صيف ••

وفي ذلك اليوم •• عندما كانت الشمس تنشر ذراتها الذهبية على رؤوس الاشجار في طريقها نحو الغرب التقيت بلطفي برهان فكاد قلبي يثب من صدري توقف دون كلام • كان وجهه المرح قطعة حزينة ، وابتسم بصعوبة وهو يمسك بيدي • وقال بمرارة :

ـ أخيرا وقد أخذ الطنين يموج برأسي :

ـ أين أحمد ••؟

قال وفي صوته رنة حنق :

لقد انتظرك طويلا ••

صحت في وجهه والدمع يخنقني :

ـ أين هو ••

مات ••

كان الطنين هائلا • كأن آلافاً من الاجراس تقرع داخل رأسي •• ومشيت •• شحوب مريع يصبغ الدنيا •• لقد انتظرني طويلا •• انتظرني••

الشمس تختفي خلف الربوة ••

وخيل الي أني أراه •• وعيناه نبعا عتاب ••

ومشيت في الشحوب المريع ••

محمد نديم ـ القامشلي

الحروف ودهاليز الليل

شعر

محمد الفايز

« سيزيف »

« شاعر وقاص ، طليعة الادباء الكويتيين الشباب يحمل عبء ارساء قواعد جديدة لكل الشباب هنا في اكتشاف الواقع الجديد في الكويت » ..

لست حاقد
لم أعد أكتب عن جرح عميق ومواقد
أضرمتها أمس في صدري المكائد
ودهاليز خمور وموائد
لم أعد أعبء في مستنقع الليل والآف الضفادع
عند شباكي تداجي وتخادع
وبأنثى ترضع الشيطان في الغاب وأمعاء بنيها
ترضع الصخر • وفي كهف النسور
أهلها صرعى يموتون سويا
فأنا لست نبيا
لست مسؤولا عن الأرض • ولن أسمع وحيا
وأنا لست مسيحياً أو إلها عبقريا
لم تعد شمسي تضيء الكهف • لن ألقي دلائي
في المياه الآسنات
لن أغني للموات
مثلما كنت ولن أفتح بابي
لسكارى الليل كالمومس • لم أوقد شهابي
في عيون مطفآت
عجزت عن فتحها الشمس • وفي تلك الصخور
عبر صمت الليل والوادي ذئاب وصقور
تنهش العالم في صمت • وما جدوى الحروف
اللاهثات
لخنازير وموتى وطغاة

ولمرضى بعضهم يأكل بعضا كالوحوش الكاسرات
« سبنوزا » مزقوه
والمسيح
فوق قضبان صليب علقوه
وسقوا السم « لسقراط » و « غاندي » قتلوه
و « المعري » في دجى ليلين حياً دفنوه
وعلى جدران « باريس » إلى الآن وفي حاراتها
الشيء الكثير
من دماء الجرح • والسور الكبير
مثل أسوار بلادي
لم يزل يعرب عن كهف الجريمة
وشواطيء « هورشيما »
لم تزل فيها عظام وضلوع
وحروف « ليسوع »
والحمامة
بصقتها اسهم الليل وعش العنكبوت
في « حراء »
مزقوه الجبناء
وصحابي يأكلون الشوك من جوع ويسقونّ الدماء
والدموع
وجرار الخمر في دهليز جلاد تراق
أيها العالم ياكهف النفاق

بدمي حقدي يغني • واليهود
يشتمون الشرفاء
في بلادي • في بلاد الشعراء
ويغنون الى الشمس • وفي قاع الظلام
ذبلت أقمارنا • يا أغنيات
يا أغاني « أم كلثوم » واشعار الفرات
يا دهاليز الرشيد العابقات
بعطور الغيد يا مجد الصحارى الحالمات
بسرى الفتح • وفي قاع الصخور
وليالي الموت في صمت القبور
هبطت شمس جميلة
من ليالي « الف ليلة »
وبغابات الرماد
« شهر زاد »
وخمور الشعراء
أحرقتها النار فالعيد بكاء
ونواح ورثاء
في بلادي • في بلاد العظماء
وأنا حرف حزين وغناء
من صحارى الشمس • من ليل الجنوب
أتضوى بمصابيحي وناري
ولغيري شمس هذا العالم المجدور • والحرف الحزين
هل يداوي الجرح ؟ ماذا يبتغون
من قصيدي • وهو دمع وعيون
من رمال الشمس • يانسل الجنون

محمد الفايز ((سيزيف))

المدارس الأدبية

بقلم

الدكتور محمد حاج حسين

كانت ليلة لاتنسى في تاريخ الأدب الفرنسي .

المسرع غاص بالصفوة من مثقفي باريس الذين هرعوا لمشاهدة مسرحية هرناني التي ألفها فيكتور هيغو الذي توج أميرا على المدرسة الرومنتيكية الافرنسية . وكان الجمهور يترقب المسرحية ، وقد حبس أنفاسه ، فقد قيل أن المسرحية تهزأ بالقواعد الكلاسيكية المتحجرة ، وتحطم الوحدات الثلاث : وحدة الزمان والمكان ، والعمل التي قال بها أرسطو، أو نسبها اليه شراحه ، والتي كانت لها قداسة لدى الكلاسيكيين لم يحاول واحد منهم أن يثور بها ، أو يزيح عنها قيد شعرة حاشا كورني الذي تمرد على وحدة العمل في احدى مسرحياته ، فقامت الدنيا عليه تتهمه بهذا التمرد المشين الذي هزأ بتعاليم المعلم الأول الذي لايأتيها الباطل في نظرهم .

وما ان ارتفع الستار عن المسرحية ، وبدأت المشاهد الاولى منها حتى توترت أعصاب بعض النظارة أو على الأحق كثرتهم ، واحمرت منهم العيون، ورجفت الشفاه واهتزت الأبدان، بينما فرح الآخرون ، وهللوا لهذه المسرحية التي حطمت وحدات ارسطو الثلاث ، وسرعان ما نشبت المعركة لاهبة عاصفة ، فتدافعت المناكب ، وامتدت الأيدي تضرب الوجوه، وتفجرت الدماء ، واستحال المسرح الى ميدان معركة حقيقية بين أنصار الكلاسيكية والرومانتيكية ، وأبلى فيها البلاء الحسن الشاعر الشاب تيوفيل جوتيه الذي كان آنذاك متحمسا للمذهب الجديد .

ولأول مرة في تاريخ الأدب تحول اختلاف الرأي الى معركة بالأيدي .. ولكن هناك في مقصورة بعيدة كان يجلس المؤلف يضحك في سره من هذه المعركة ، ويهزأ بها ، ولا يهتم الا بأمر واحد .. هو عظمة مسرحيته ، فهو يعتقد أن هذه المعركة لامعنى لها ، والأدب لاعلاقة له بالكلاسيكية أو الرومانتيكية ، فأما أن يكون أدباً أولا .. وقد أثلج فؤاده أنه استطاع أن يبدع أدباً حياً في مسرحيته التي أثارت كل هذا التدافع والتلاحم .

وكان الشاعر الالماني العبقري جوتي الذي توج أميرا على المدرسة الرومانتيكية الالمانية يتأذى كثيرا عندما يقولون عنه .. انه شاعر رومانتيكي ، فتضطرم ثورته ، ويعلن أنه لايعترف على هذه التسمية ، فهو كلاسيكي ، فقد كان يعتقد أن الأدب الحق لا علاقة له بهذه المذاهب ، والفنان اما أن ينتج أدباً أو لاينتج . وقال جوتيه ذات مرة منددا بهذه التي أثارت الكثير من النقاش والجدل في العالم جاءت التفرقة بين الكلاسيكية والرومانتيكية : ان تقسيم الشعر الى كلاسيكي ورومانتيكي .. هذه القسمة مني ، ومن شللر ، فقد كنت أؤلف في الشعر موضوعيا، وشللر يؤلف ذاتياً ، وكتب مقالا ليدافع به عن نهجه تحدث عن الشعر العاطفي الساذج ، وسرعان ما تعلق به شلجل وتلامذته ، وراقتهم هذه الفكرة ، وطوروها، وذاعت في العالم ، وأضحى كل واحد يتحدث عن الكلاسيكية والرومانتيكية ، ومنذ خمسين سنة لم يكن أحد ليعير هذه المسألة أي اهتمام .

والمدارس الأدبية أشبه ما تكون بالأزياء النسوية، فالمرأة نزاعة الى تغيير « المودة » دائماً ، فهي لاتستقر على زي ، ورجال الأزياء يتفننون في ابداع «المودة» لها ، وهكذا المذاهب الأدبية ليست سوى أزياء مختلفة يرتديها الأدب، وسرعان ما تتبدل ، فكل نزوة

تجديد يأتي بها فنان يجد فيها بعضهم جدة وطرافة ، فيسيرون على هديها ، ويؤلفون مدرسة لها ، وجميع هذه المذاهب في حقيقتها ليست الا صدى للتجديد الذي تحتمه طبيعة الأدب ، وتطوره المستمر ، فمن المستحيل أن يبقى الأدب على وتيرة واحدة ، فطبيعة الاشياء تحتم عليه التجدد ، ولكن هذا التجدد معهما امتد وعمق لا يعدو أن يكون صورة جديدة للأدب الذي يعيش في جوهر خالد منذ ان كان ، وعرفه الناس ، وعبروا عن مشاعرهم بالكلم الجميل ، والمهم في هذا كله أن ينتج الأديب أدباً حقاً ، وليست هذه المذاهب المتباينة سوى صورة للأصل ، وقيمة الأدب لاعلاقة لها بالمدارس التي ينتمي اليها ، فقيمته الحقيقية تنبع من أصالته ، وتدفقه ، وقدرته على التعبير عن النفس في مختلف ألوانها •

لقد قامت الكلاسيكية ضد تقاليد الكلاسيكية ، فغلبّت القلب على العقل ، ونبعت من التلقائية ، فهي تقدس السذاجة والعفوية ، ولهذا كانت ذاتية بخلاف الكلاسيكية التي قامت على العقل ومحاكاة الأقدمين، وتغليب العقل على القلب ، فهي موضوعية • ولكن سواء أكان الأدب ذاتيا أم موضوعيا ، فهو لايصدر الا عن حقيقته التي تأتلف فيها الذاتية والموضوعية ائتلافاً عجيباً ، ومن هذا الائتلاف يأتي الابداع الفني، وكروتشه يرى أن الشاعر العظيم هو من اجتمعت فيه النزعتان الكلاسيكية والرومانتيكية ، وهما في الواقع سمتان متلازمتان متحدتان في الفنان الحق، فكورناي كان من أقطاب الكلاسيكية الافرنسية في القرن السابع عشر ، واتحدت فيه هاتان النزعتان •• وظهرت في أعماله الرومانتيكية رغم أنه حاول جهده أن ينأى عنها استجابة لعصره ، وتقاليده الأدبية •

يقول أندريه جيد : يجب أن نذكر ان الصراع بين الكلاسيكية والرومانتكية قائم داخل كل عقل ، ومن هذا الصراع ينشأ العمل الفني ، ولقد أصاب جيدلب الحقيقة ، فالفنان الحق هو من تعانقت في أعماقه الذاتية والموضوعية ، وكان أدبه ثمرة لهذا العناق الذي يبدع أروع الآيات الفنية ، وهربرت ريد يلقي ضوءاً قوياً على هذا التلاقي في الفنان ، فهو يرى أن في ذهن كل فنان قوتين احداهما تدفعه الى العقل البدائي ، وثانيتهما تدفعه الى النظام والجمال الخلقي ، وأحيانا تتوحد هاتان النزعتان ، فاذا تم هذا الاتحاد ، أبدع الفنان أروع آثاره •

وعلم النفس يقر هذه النزعة ، ويؤيدها ، فقد أثبت فرويد وجماعته أن النفس تحوي النزعتين : الرومانتكية والكلاسيكية معا ، ولايمكن فصلهما عن بعضهما ، ولهذا رأينا مكسيم غوركي مؤسس الواقعية الاشتراكية يرى أن كل عبقري يجمع بين النزعتين الواقعية والرومانتكية •

ولهذا كانت هذه المدارس الأدبية لاتعيش طويلا، فسرعان ما يبدو تهافتها ، وعدم قوتها ورسوخها ، فينأى الناس عنها ، ويتلمسون أشياء أخرى فيها تجديد وابتكار ، ونغمات غير النغمات التي ألفوها حتى مجوها ، فالرمانتكية لم تعش في فرنسا أكثر من ثلاثين عاما ، وأعقبتها المدرسة البرناسية في الشعر، والواقعية في النثر ، وكلتاهما في حقيقتهما عودة في بعض المناحي الى الكلاسيكية ، فقد ندد الناس بالرومانتيكية ، وسخروا من دموع الشعراء وأناتهم وأنانيتهم حتى رأينا تيوفيل جوتيه الذي أبلى البلاء الحسن في ليلة هرناني بعضلاته القوية يترك الرومانتكية بعد أن أرّخ لحركتها في كتاب قيم، وينحاز الى البرناسية • وحاول أقطاب الرومانتكية الدفاع عنها ، بيد أن دفوعهم لم تستطع أن تقاوم التيار الجارف ، فانهارت ، وذلك لان اقتصار الفنان على نزعة واحدة هي الذاتية لايمكن أن تعيش طويلا ، لهذا كان الناس يرددون •• ماذا يعنينا من آلامك ، ودموعك •• ولكن التيار كان أقوى من النزعة الرومانتكية ، فانهارت الى غير رجعة •

لقد تعددت المذاهب الأدبية منذ القرن التاسع

عشر ، وعمر أكثرها لايزيد عن عمر الزهور .. فبعد الروماتنيكية جاءت مذاهب شتى ، متعددة الأزياء والألوان ، منها : الواقعية ، والطبيعية ، والبرناسية، والرمزية ، والسريالية ، والمتقبلين ، والشعر الرعوي، وشعراء الصورة ، والتكعيبية ، والوجودية ، والواقعية الاشتراكية . والخلاف بين هذه المذاهب ينهض على دعامتين أساسيتين هما : الشكل والمضمون ، فبعضها يغلب الشكل على الموضوع ، ويدعو الى العناية به، وتوشيته، وتنميقه، والاهتمام به أكثر من الموضوع ، وبعضها الآخر يؤثر المضمون على الشكل ، ثم اختلفوا من ناحية المضمون نفسه ، فمدرسة ترى أن الفن يجب أن يكون خالصا للجمال، فالفن للفن .. لاينشدمنه سوى اللذة الفنية، ومدرسة أخرى ترى أن الفن يجب أن يخدم الشعب ، والطبقة الفقيرة منه بصورة خاصة ، ومذهب آخر يطلب من الفنان أن يكون ملتزما ، ويجب أن يكون له رأي في قضايا عصره ، ويدعو الى الحرية .. وهكذا فرقت هذه المدارس بين الشكل والمضمون .. كما ان بعضها غلب العقل على العاطفة ، وبعضها الآخر العاطفة على العقل .. أما الحقيقة فان الأثر الفني لا يعرف هذه التفرقة ، ولا يقرها ، فالأثر الفني يولد كاملا متحد الأجزاء متلاحما وليس هناك أي دليل على هذه الفرقة التي يزعمونها .. فسائر الفنون الأدبية تولد كاملة يلتحم فيها الشكل والمضمون التحاما قويا ، لا انفصام بينهما . وكل نزعة ترمي الى التفرقة تنهار لانها تخنق الأثر الفني ، وتقضي عليه ... وكما ان الانسان يولد تاما تختلج الروح في جسده ، كذلك الأثر الفني يولد كاملا .. والفنان عندما يبدع آثاره لاتخطر في باله هذه التفرقة بين الشكل والمضمون .. لان قوة خفية تدفعه الى الابداع ، فاذا وضع نصب عينيه أفكارا معينة يريد أن يدفعها الى الوجود ، دون أن يحسها احساسا صادقا، وتتفاعل في أعماقه جاءت كتابة ذليلة بعيدة عن الفن الصافي .

والفن لايعرف القسر ، فهو حر طليق ، وكل فنان يبدع وفق موهبته ، ولايجب أن نحده بقواعد ، وقوالب وأفكار معينة .. لأنه في استجابته لهذا يقضي على الجذوة الفنية فيه ، فيأتي أدبه بعيدا عن الحرارة ، والحياة مليئا بالتكلف الصارخ .. والمهم في هذا كله أن يبدع الأديب متساوقا مع ذاتيته وأحاسيسه، فاذا تجانف في أدبه عن الصراع الاجتماعي أو الطبقي، فليس لنا أن نرغمه عليه لنتوجه أدبياً أدبياً عظيما في دعاية مزورة باطلة .. ومن هنا كانت حملة لسارتر على جوستاف فلوبير غير ذات موضوع ، فقد هاجمه بقسوة حتى قيل عن سارتر ان لديه عقدة فلوبير .. وذلك لانه حدثت في أيامه ثورة في فرنسا، ولم يشر اليها بكلمة .. والحق أن فلوبير حر في كتابة ما يشاء .. ولا يشترط عليه الا أن يصدر عن احساس صادق ، فالأدب – ولو كان للفن الخالص – يغني النفس الانسانية ويزيدها معرفة ، والمهم في هذا كله أن يصدر الفنان عن شعور حي صادق .

ولهذا كانت المدارس الأدبية المتعددة غير ذات موضوع . صحيح أن بينها فروقاً واختلافات ، بيد انها في صميمها تعود الى أصل واحد .. هو الأدب.. فالأديب أما أن ينتج أدبا أو لاينتج ، والأدب الحق في تاريخ العالم ضئيل محدود، فالروائع الفنية العالمية ليست بالكثرة التي يتخيلها الانسان .. فليس هنالك أصعب من الانتاج الفني الخالد ، وأشد عسرا منه .

والأدب .. والشعر بصورة خاصة لايعرف القديم ، ولا الجديد فاما أن يكون أدبا ، أو لايكون. وليست هذه المذاهب الأدبية الكثيرة سوى أطر مختلفة لصورة واحدة .. والمهم الصورة ، وليست الأطر.. ومن طبيعة الأدب النزعة الى التجديد ، بدافع الحياة والتطور .. وهذا التجديد مهما كان قويا وعظيما لايستطيع أن يضيف الى الصورة سوى بعض الملامح، ولكن الأصل .. هو الصورة . والأديب الحق هو الذي يستطيع الابداع الفني الخالد .. سواء كان منساقا مع مذهب أدبي معين ، أم غير منساق معه .

الممرضة الليلية

قصة

* للكاتبة الاميركية : بيرل باك
* ترجمة : عيسى الناعوري

دخلت الى الغرفة صامتة ، وصامتة كذلك خطاها بحذائها المصنوع نعله من اللباد ، والضوء الليلي يلقي أشعته الخافتة على الطاولة الموضوعة قرب السرير . وسارت خفيفة عبر الغرفة ، حتى اذا ما انحنت فوق السرير خشخشت ثيابها المنشـَّـاة . لم يكن ثمت أنفاس مسموعة .

« كابتن بينتلي » !

كان صوتها منخفضا ولكنه واضح . أتراهـا وصلت متأخرة ؟ لقد عاقها عن الوصول الى ما بعد الساعة الثالثة طفل كان يصرخ في القسم الآخر من المستشفى بعد ان أفاق من تأثير المخدر .

وقالت : « انني هنا ، يا كابتن » .

ووضعت يدها على جبينه . كان جبينه معروقا دون لحم ، والعظام تحت الجلد غائرة عند الصدغين. وكان الجلد حارا .

وقالت بلطف : « عد يا جوف ! »

فتنهـَّد ، وأحسـَّت هي بحركة خافتة تحت يدها. فسلـَّطت النور فوق السرير ، فوقع بياضه العنيف على وجه المريض .

فهمست : « اوه ، جوف ! انه لما يخيب الرجاء منك حقا ان تمضي سريعا لانني تأخرت عنك بضع دقائق فقط ! لقد قلت لك انني سأعـود اليـك ، ووعدتني أنت ... » .

وكانت تعمل بسرعة وهي تتكلم ، فهناك الحقنة تحت الجلد ، وكذلك المخدة الكهربائية لتدفئة جسده المتكمش من البرد .

فراحت تؤنبه بحنان وحشي : « الآن فعلا ... فعلا ، فعلا ... لانني تأخرت بضع دقائق فقط ، وكأنه ليس لديَّ من اعنى به سواك .. » .

فانفرجت شفتاه الشاحبتان : « أ أنا .. » .

فأجابت : « كلا ، أنت لست كذلك ، وأنا أود أن لاتتخيل أشياء كهذه . انك لن تموت ! لن أدعك تموت . لقد أغمضت عينيك واسترحت لان الساعة الآن الثالثةصباحا فقط . آه يا عزيزي ! آه يا عزيزي! انك لجدير بكل عناية يا حبيبي ! »

فقال دون أن يفتح عينيه : « قوليها ... مرة اخرى » .

ـ « لن أقولها... الا اذا عدتالي . وما الفائدة من ان أحب انسانا يريد ان يفارقني ؟ » .

ـ لست اريد ..

ـ نعم ، أنتتريد ذلك، فأنت تدع نفسكتمضي. انك لاتحاول أن تبذل جهدا . حاول الآن ... قل لنفسك « انني سأعيش » ...

ـ انني ... ثم تلاشى الصوت .

ـ سأعيش ... قلها ... سأعيش ، سأعيش ، سأعيش !

فقام بجهد عظيم حتى استطاع أن يقول : « أعيش » ..

ـ هذا صحيح. ستعيش لأنني لن أدعك تموت . أنت حي ياحبيبي ! لقد نجوت . انك ههنا تتنفس ، وقد أصبحت دافئا .. اشرب الآن هذا الحساء الساخن ! حساء الساعة الثالثة صباحا .

ونزعت غطاء الفلين عن الترموس وسكبت نصف فنجان حساء ساخن ، وراحت تطعمه اياه . اوه ، ولكنه يكاد يمضي نهائيا .. الأمر قريب جدا .. خمس دقائق ويكون قد فات الاوان ... هكذا كان المدى قصيرا . لم يعد فيه نبض . لقد جسّت رسغه الرخو . انه ما يزال دون نبض .

فمضت تقول بصوتها الواضح ، ولكنه خافت لئلا تسمعها رئيسة الممرضات : « حبيبي ، حبيبي ! سأبقى هنا معك ، ولن أغادرك مرة أخرى . انني في حاجة اليك يا أحب الأحباء ، وسيكون العالم خواء من دونك ، فأنت محور حياتي ، ولست أريد انسانا سواك . أتدري ماذا فعلت مساء أمس حين كنت في الخارج مدة ساعة ؟ لقد خرجت أسير في ضوء القمر وأنا أفكر فيك ، موهمة نفسي انك معي . كنا نسير معا بين الاشجار ، وكنا سعيدين لأننا نحيا معا . وجميل جدا أن نحيا . كان كل منا يستطيع أن يسمع صوت الآخر ، وكنا نحس بالاوراق الساقطة تحت أقدامنا ، ويدك في يدي حارتين متماسكتين ، ورائحة الطحلب والندى تفوح حلوة منعشة ، ورحنا نغني أغنية ... أتذكر ؟ موسيقى ! فكّر في الموسيقى..»

وراحت تترقب عودته الى الحياة بينما تسيل الكلمات من فمها . فتحركت رموش عينيه ، وسال شيء من التورد في وجهه . نعم لقد عاد نبضه مرة أخرى ، ضئيلا ولكنه حي . ترى الى أين يذهب المحتضرون حين يقررون أن يموتوا ؟ منذ عشر سنوات وهي تعمل ممرضة وما تزال لا تستطيع أن تطيق رؤية انسان يموت .

لقد قالت لها رئيسة الممرضات مرة : « عليك أن تتعودي على هذا يا آنسة بروان » ..

آه ، ولكنها في تلك الليلة كانت قد فقدت أول مرضاها . كانت امرأة في مثل سن أمها ، لطيفة ، طيبة القلب ، ولكنها منهوكة ، خائرة القوى بحيث لاتستطيع أن تقوم بأي جهد لكي تعود الى الحياة من وراء حدود الموت ، وكان ذلك خطأها ، ان لم يكن كله فقسم منه ، ولكنها كانت اذ ذاك ممرضة حديثة العهد ، منذ شهر واحد أو شهرين ، ولم تكن تدري شيئا عن العمل في ساعات الليل ، فلم تكن دائما الساعات عينها ، فالساعة الخامسة صباحا لحالات أمراض القلب ، مثلا . وأخيرا عرفت ان كل واحد له ساعاته الخطرة . وعند ذاك فقط طلبت أن يكون سهرها في ساعات الليل .

لقد قالت لرئيسة الممرضات : « لن أستطيع أبدا أن أتعود على الموت ، وسأظل أكافحه مدى الحياة». فقالت رئيسة الممرضات : « سيأتي يوم ترين الامور متساوية». فقالت بثبات : « سأظل مع ذلك أكافح».

ومع هذا فقد تركت الكلمات أثرها في نفسها وجعلتها تفكّر. أتراها كانت تملك القوة على الكفاح لو كانت وحدها ؟ ومن أين تأتيها القوة عندما تنطفىء النار داخل اطارها الانساني ؟ ان مصير النار الى رماد ما لم يقدّم لها وقود جديد ، وما لم يقم احدهم باستحثاث لهيبها على النضال ، ويمضي في معالجتها لتسترد قوتها من جديد .

وراحت تراقب وجه الكابتن باهتمام . انه وجه جميل متعب ، لم يعد فيه شباب . كان مريضا جدا ، وليس له حظ في أن يعيش طويلا حتى لو شفي من مرضه . كانت الجراح القديمة تعمل على اضعافه ، وكذلك العمليات الجراحية التي لم يكن في وسعها قط أن ترد الحيوية ، وروحه الواهنة .

وقالت له مرحة : « ها أنت قد تناولت فنجانا كاملا من الحساء الحار ، وهذا يمكن ان يقوي امعاءك . لقد عادت الحرارة الى جسدك . أتحس بيدي ؟ » .

ووضعت يدها على خده ، فحاول أن يبتسم ، وقال : « أصحيح انني سمعت ..؟ » .

ـ انك سمعتني أدعوك لتعود ؟ من المؤكد انك سمعت . لقد دعوتك بكل جوارحي ..

ـ هل سمعتك تناديني ؟..

ـ حينما أقوم بعملي ، أيها الكابتين ، فأنا مطالبة بأن أدعوك بجميع أنواع الاسماء . انني فظة ، أستطيع أن اشتم وأن أحلف الايمان . لقد كان هكذا جنوني عليك ... لانك اغتنمت اللحظة القصيرة التي تأخرت عنك فيها فأردت الهرب !

ـ لم أكن أقصد ان ..

ـ بلى ، لقد أردت ذلك . كان عليك أن تتماسك ريثما أعود . ألم أقل لك ذلك ؟ سأضع الآن المخدة الكهربائية تحت قدميك .. فلا يدر في خلدك أن في وسعك أن تهرب . سأجلس ههنا بقية الليل في مكان استطيع أن أراك منه ، أما أنت فستنام وتحلم أحلاما راضية ، وفي الصباح ستغتسل ، وسأحلق لك ذقنك وأمشط شعرك ، وستتناول فطورا شهيا.. لكي تجلب السرور الى نفسي ! هل تسمعني يا كابتين ؟

كانت كثيرة الحركة من فوقه وهي تصلح غطاءه، وتبعد ملاءة السرير عن وجهه . وكانت عيناه مفتوحتين عندئذ : عينان زرقاوان تحت حاجبين قاتمين وشعر رمادي .

ـ أظن ان المستشفى كله .. يستطيع أن يسمع صوتك ..

ـ الآن ، الآن لا تكن عنيدا معي ! أغمض عينيك أيها الولد الكبير .

ـ أريد أن أشاهدك ...

ـ أوه ، حسنا . سأجلس ههنا بحيث يمكنك أن تراني ... مع انني ، يعلم الله ، لست شيئا تطيب رؤيته !..

فلم يجب على ذلك ، وجلست هي كما وعدت ، وراح هو ينظر اليها مدة دقيقة أو دقيقتين ، ثم أغمض عينيه لينام . فلما تأكدت من انه نام تسللت على رؤوس أصابع قدميها الى سريره ووضعت اذنها عند فمه . كان يتنفس تنفسا لا بأس به الآن ، انه تنفس منتظم وان لم يكن عميقا . لعله سيبقى أربعا وعشرين ساعة أخرى ، ثم قد تعود لتبدأ عملها معه من جديد. ولكن من هو هذا الرجل ؟ ولماذا لا يأتي أحد ليراه؟ لقد قرأت سجلاته كلها ، وهي تكاد تكون خالية : الكابتين جوف بينتلي ، من البحرية الاميركية. مكان الولادة سان فرانسيسكو . مكان الخدمة العسكرية وراء البحار في اوروبا وكوريا .. جرح .. آه ، هناك قائمة بتلك الجراح ، وهي بعدد الاشرطة المعلقة على بزته العسكرية .

واستلقت على المقعد لتنام بقدر ما تستطيع . ان أية ممرضة سواها تنتهي وظيفتها ، تخرج الى غرفتها وتنام على سريرها نوما هنيئا ، اما هي فما

تستطيع أن تنام . لنفرض انه استيقظ من جديد ووجدها قد غادرته ؟ انه عندئذ لن يعود يثق بها مرة اخرى ، والثقة هي خيط الحياة الوحيد الذي بيدها.

لقد أفزعتها هذه الساعة من الليل ! الساعة الرابعة . انها الساعة السوداء لديها . والشمس تشرق في السادسة ، وما اطول انتظارها ! ان في نوم النهار وعمل الليل شيئا غير طبيعي ، فكيان المرء بأكمله ينعكس ، وبعكسيته يتحول انقلابا . فالنوم من أعمال الليل ، وليس في النهار ساعات كهذه : ساعات مظلمة سوداء يغيم فيها الذهن نفسه ، ويصبح ضوء النفس خافتا . النمو كله يتوقف . وهي تحس بأنه متوقف عندها الآن ، بينما تفرخ في نفسها هموم الماضي ومصائبه من جديد . ليلة بعد ليلة كانت تستطيع أن تنقذ الآخرين ، ولكنها عاجزة عن انقاذ نفسها . لقد تعبت من حياتها . وكان مسكنها جناحا مؤلفا من غرفتين تعيش فيهما وحدها ، دون أمل في شيء أفضل . ومن أين لها الوقت لصداقة أي انسان ، أو للقاء أي رجل على انفراد ؟ ولم لم ترث عن أبيها وأمها شيئا من الجمال ؟ انها تكاد لا تتذكرهما . والواقع أن صورتهما غامضة في نفسها حتى لتتساءل في هذه الساعة اذا كانت تتذكرهما على الاطلاق ... لعلها ، وقد نشأت يتيمة في بيت خالتها ، كانت تتخيل صورة والديها ، أو تختلق لنفسها صورة لهما من خلال صور الاعلانات أو الصور السينمائية .

لقد قالت لها خالتها : كلا ، فقد كان أبوك وأمك أجمل من أن يعيشا . لقد كان الجميع يقولون ان كلا منهما مخلوق للآخر . والمصيبة انهما كانا متشابهين جدا ... فكلاهما طائش متهور ، وواثق من أنه سعيد الحظ . ومن غيرهما يقدم على شراء طائرة بحجم حوض الحمام ويمضي يسابق بها في السماء ؟

ذلك ما كان يفعله ابواها أيام الآحاد بعد الظهر حين كان عمرها ثلاث سنوات ، فقد كانا يمضيان مع نحو عشرين شخصا في مثل سنهما ، وكلهم من الاصدقاء، وكلهم مرحون، جميلو الطلعة ، فيتسابقون بطائراتهم في الجو . وكانت هي تظل عند خالتها بعد الظهر ، حتى كان يوم الأحد ذاك الذي لم يقدر لأبويها من بعده عودة .

لقد لبست خالتها عليهما ثياب الحداد سنة كاملة، وكانت تقول لها : « يسرني انك لست جميلة مثلهما. لقد كان جمالها أكثر من أن يسمح لهما بالحياة الهنيئة » .

هكذا لم تكن قط جميلة . ولقد ورثت عن أحد أجدادها قامة مربوعة ووجها بسيطا ، غير ان ما لا يعرفه أحد هو أنها كانت في داخلها شبيهة بأبويها : كانت جريئة في داخلها ، متهورة ، وسريعة التخيل ، والذي كانا يفعلانه في واقع الحياة كانت تفعله في احلامها ، فهي دائما على شفا الموت . وكانت تحلم بأن تطير الى ما وراء حواجز الحياة . وفي صيف أحد الاعوام، قبل أن تصبح ممرضة ، ذهبت للتزلج على الجبال في (بايكز بيك) ، ولم تقنع بما رسمه لها دليل التزلج بل تركته وتجاوزت الحد المرسوم ، ولكنها لم تلبث أن انزلقت على منزلق جليدي خطر .

في تلك اللحظة الاخيرة ، وقبل ان تحس بالحبل يطوق خصرها ، شعرت باضطراب غريب . لقد عادت الى الحياة ، ولكنها قابلت فزع خالتها بهدوء لا حد له. فقالت خالتها : « جين ، ليس في وسعي أن أطيق مثل هذا بعد الآن . ستبقين في البيت من الآن فصاعدا ، وستتزوجين ، فأنت بحاجة الى رجل يعنى بأمرك ».

ـ لا تأبهي لهذا يا خالتي ماري ، فان في وسعي أن اعنى بنفسي •

المشكلة انها لم تجد قط ذلك الرجل • قد لايمكن تصديق هذا ، ولكن الواقع انه لم يطلب اليها أي رجل أن تتزوجه • ولم تكن تصدق ان فتاة تصبح امرأة ناضجة ولا تثير اهتمام أحد من الرجال مطلقا • غير ان هذا كان الواقع ، فقد كان الرجال ينظرون اليها ثم لا يلبثون أن يتجاوزوها بأنظارهم • ولهذا لم تسمح لنفسها قط أن تقع في حب رجل ، ولكنها بدلا من ذلك أحبت الموت ••• ترى ماذا وراء اللحظة النهائية ؟ لقد بحثت في مخيلتها ••ما الذي خطر في بالها في اللحظة التي رأت فيها الارض تستعد لاستقبالها حينما وقعت ، قبل أن ينقذها الحبل من النهاية ؟ ان ما رأته اذ ذاك لم يكن فراغا • فما الذي رأته ؟ انها لاتستطيع ان تتذكر •

عند ذاك حزمت امرها ، وقالت لخالتها : « أريد أن أكون ممرضة ، ممرضة مدربة » • فنظرت اليها خالتها مستغربة : « لماذا ممرضة ؟ » •

فهزت كتفيها • وكيف يمكنها أن تفسر هذا ؟ ولكنها عرفت طريقها • لقد كان الموت الذي واجهته على الجبل هو الحافز • انها تريد ان تعرف عن الموت وفي وسع المشرفين على الموت أن يخبروها • المدنفون يستطيعون ان يجلوا لها السر •

ولكن المشكلة انها لاترضى بأن تدعهم يموتون • وكما أسرع الدليل فألقى اليها بالحبل حين شرعت تسقط ليؤمن لها النجاة ، كذلك عليها ان تسرع هي أيضا الى انقاذ من ليس في وسعهم النجاة من دون مساعدتها • الاطفال ليس في وسعها ان تنقذ حياتهم، ولهذا قررت بعد بضع سنوات ان لاتعمل في تمريض الاطفال ، لانهم يدعون الحياة تهرب منهم بسهولة ، فيخرجون من حالة في الوجود الى اخرى ، ويموتون في ساعات النهار بمثل السهولة التي يموتون بها في ساعات الليل المظلمة • وفي أحد ايام حزيران شاهدت أول طفل يموت ، وكان مخلوقا صغيرا يصارع الحمّى ، وقد غسلت جسده الوردي بالماء البارد دون أن تعلم كم كان المنزلق قريبا منه • كانت تتحدث الى الطفل ، وتغني له اغنيات الحضانة ، والطفل يصغي اليها نصف نائم • وفجأة سمعت شهقة خفيفة ، ومن دون أن تعلم كان المنزلق قد بلغ نهايته •

ولكن أكان ذلك منزلقا ؟ قد لاتكون هناك هاوية ، أو اذا كانت هناك هاوية فقد لايوجد خيط حياة أو يد" تبرز من مكان ما لتتمسك بالمخلوق وترجعه الى الحياة • ان لم تكن حياة فقد يكون شيء آخر •••

ونهضت من مكانها ومضت الى السرير ونظرت الى وجه المريض فوق المخدة • الكابتين جوف بينتلي! كان الوجه جاداً ، والشفتان صارمتين ، والعينان المغمضتان غائرتين ••• وانحنت عليه فجأة ، ووضعت اذنها على فمه ، وجسّت رسغه بعصبية ، وراحت تتحسس مكان القلب • لم يكن هناك تَنفّس ، ولا نبض، وكان القلب متوقفا • فثار غضبها فجأة،وتمتمت من بين أسنانها المطبقة : « أوه ، جوف ! كيف أقدمت على هذا ••• بعد كل ما فعلته لأجلك ؟•• كان عليك أن تخجل • حقا كان يجب أن تخجل ! لقد كنت جالسة هناك ، وكان عليك أن تدعوني فقط ••اوه ! عليك اللعنة يا حبيبي ••• عليك اللعنة •• عليك اللعنة !•• »

وفيا هي تتكلم كانت تقـوم بالاشياء النهائيـة واللمسات الاخيرة ، فتشد أطرافه ، وتشبك يديه على صدره : تانك اليدان النحيلتان الطويلتان يدا سيد كريم • انها لن تعرف ماذا أصبح الآن ، ولو انه عاش قليلا لحدثها عن نفسه ، ولسألته السؤال الابدي : « قل لي يا كابتين بينتلي • كثيرا ما تساءلت : ما الذي رأيته في تلك اللحظـة التي انزلقت فيهـا وحيدا ، حين نظرت الى حافة الهاوية ؟•• » •

ثم أطفأت النور وانصرفت ••• وأغلقت الباب بلطف ونزلت من الممر بخطى صامتة يطبعها حذاؤها المصنوع نعله من اللباد • وفي مكتب رئيسة الممرضات وقفت تستريح قليلا لتقدم لها تقريرها :

« رقم سبعة انتهى الآن ، يا آنسة ماركس »

فنظرت المرأة ذات الشعـر الابيض والمـلابس البيضاء من خلف مكتبها ، حيث تكتب تقاريرها ، وقالت : « آه ، يا آنسة براون ، انك تقسين علـى نفسك ••• حسنا ، اذهبي الآن لتنامي ، لقد وصلت في هذه اللحظة حالة عاجلة • سأضعه في رقم سبعة »•

وعادت الى منزلها ذي الجناح المؤلف من غرفتين، فاستحمت بالماء الساخن ، وتناولت بيضا مخلوطا ، وخبزا محمرا ، وقهوة ، ثم مضت الى سريرها في غرفة النوم ذات الستائر المسـدلة لتعتيمها وعـدم السماح لأشعة الشمس المشرقة بالنفاذ منها • ولكنها لم تستطع أن تنام • أين جوف الآن ؟ أتراه يدري كم عملت من أجله لانقاذ حياته ؟ لو عـاش فلربما استطاعا أن يتعارفا ، وان يصحبا صديقين ••• أو لربما تبادلا الحب ••

وتقلبت في الفراش قلقة ، •فزجرت نفسها بصوت مرتفع : « اوه ، انتهي من أحلامك يا جين براون ! »•

وحينما استيقظت من نومها كانت الساعة السادسة مساء ، وكان عليها ان تسرع في العودة لتتسلم عملها الساعة السابعة • ولما وصلت أعطتها رئيسة الممرضات الاوامر المعتادة : « رقم سبعة ، يا آنسة براون • ان الحالة العاجلة هناك •• مكان الليلة الماضية • انه شاب مصاب بارتجاج من اثر اصطدام سيارة ، وحالته خطرة • عليك أن تبقي الى جانبه ••• هذه هي أوامر الطبيب » •

فتناولت ورقته وقرأتها جيدا : « بيتر كيتس • العمر عشرون عاما • بروتستنتي • ارتجاج مزدوج •• »•

ونزلت من الممر ، وفتحت الباب بخفة • كانت هناك ممرضة واقفة الى جانب السرير ، تجس بيدها نبض المريض ، وكان هذا ولدا أشقر ، طويل القامة، يرقد ساكنا كأنه •••

وقالت : « لقد جئت » • فأومأت الممرضة الاخرى بهز رأسها ثم انصرفت • ومضت هي الى جـانب السرير وأخذت رسغ الفتى الناحل بين أصابعها • كان النبض خافتا ولكنه كان موجودا • فقالت بلطف : « بيتر ، انني هنا يا حبيبي • انك ستشفى من اصابتك • أتعرف هذا ؟ انك صغير السن وقوي ، ولديك كل ما تحب أن تعيش لأجله • تذكر الفتاة التي تحبها •• »•

أتراها تحب العمل ؟ لقد عملت كثيرا ، ولكـن ليس هناك أدنى حب بالمعنى الشخصي ، بل بالمعنى الشامل الذي يكنه الفرد للجميع •

وراحت تلاطفه بصوت فيه رقة وحب انساني : « بيتر ، بيتر ! انك لن تنزلق من يدي يا بيتر ! ان يدي ممدودة لتمسك بك يا بيتر ! » •

عيسى الناعوري



جورج كوينو
تعريب: الدكتور فؤاد أيوب

المقالة في العلوم والفنون ونظرية الحرية في الحياة البدائية

يعرف الجميع أن جاك روسو لم يباشر نقده لمجتمع القرن الثامن عشر بالقضايا السياسية أو بالقضايا الاجتماعية ، بل مايستغرق اهتمامه بادى ذي بدء هو فعل الحضارة في صفات البشر وسلوكهم ، وأن فحوى الكتاب الوجيز الذي أصدره عام ١٧٥٠ بعنوان **المقالة في العلوم والفنون** ، هي الفكرة بأن التقدم وهمي ،وأن الثقافة بصورة مخصوصة غريبة عن الشعب ومعادية له .

كان روسو مثله في ذلك مثل سائر فلاسفة الانوار ، يجهل قوانين العالم الاجتماعي والقوى الاقتصادية والسياسية الحقيقية . ان علم المجتمع في زمنه لما يبرح في طور الطفولة . وليس مما يدهش في شيء أنه لم يكتشف محرك التاريخ ولا اتجاه مسيره

ومهما يكن من أمر ، فان ثمة سببا آخر يحمل مفكر الطبقة العامة في القرن الثامن عشر على النظر في ريبة الى مجرى التطور المتقدم . ففي **الرسالة عن الدحض الجديد لمقالته** ، المستهدفة لحركات السكرتير الدائم لاكاديمية روان يعتبر ان كل افتراض بتملكه قطعة من الارض هو افتراء بحقه . ولسوف يخط براعة في كبرياء أن ملكية الارض قد لاتكون اثما بالنسبة الى الآخرين ، ولكنها كذلك بالنسبة اليه . ولا بد ان التاريخ على قدر كبير من العبث والاجرام مادام انتهى ، كما هو وارد في **جواب على السيد بورديس** ، الناقد اليوني **للمقالة** ، « الى ايجاد اغنياء وبؤساء » . ان الملك والكبراء يتباهون بقوائم طويلة في الاسلاف الارستقراطيين والامتيازات الموروثة . فامايسخر روسو في ادعاء أسياد المجتمع أنهم نتاج لتاريخ مسيَّر على خير وجه ، أو ثمرة لتطور ايجابي فانه ينتزع التابع عن التراتب الاجتماعي لعصره ويرميه أرضا .

ويجب أن نضيف ان سائر فلاسفة الانوار يعارضون بكل جسارة رجل العمل ، الرجل الذي يعيش بتواضع ، بالسيد الكبير الذي أفسدته الثروة والترف ، والراضي كليا بنظام الاشياء الذي خلقه التاريخ . واذا ما نقل هذا التعارض الى مستوى الافكار المجردة ، فانه القضاء بين « الطبيعة » و « الحضارة » اذن . وكثيرا ما كان فلاسفة الانوار يمتدحون النبل الخلقي الذي يتحلى به الرجل العادي غير المثقف ، فهم يصورونه طيبا ، مخلصا ، حكيما ، بل كانوا في حمى المشادات يسبغون هذه الصفات حتى على البشر الذين يعيشون في حالة التوحش ، في حالة أقرب الى الشيوعية البدائية ، هؤلاء البشر الذين لم يعثر عندهم البحارة والمبشرون والرحالة الآخرون على على النقائص الخاصة بأعضاء المجتمعات المؤسسة على الملكية الفردية الانانية ، والركض وراء الربح الشخصي ، والجشع ، والبخل ،والحسد ، الخ . فالى جانب الابطال الايجابيين المأخوذين في الظروف المتوسطة للمجتمع الاوروبي ، البورجوازيين الصغار والفلاحين والخدم ، يظهر في الادب ا لمتوحشون الذين أسبغت عليهم صفة

المثالية ، ابناء الطبيعة الذين يعرفون أحيانا أن ينتقدوا على أفضل صورة سائر مظاهر الحياة الاجتماعية حتى ليقال انهم قرأوا في تاهيني الموسوعة برمتها .

وما كان فلاسفة الانوار يرضون مطلقا بالتقدم التاريخي على علاته ، بل الامر على النقيض في ذلك . وكان المحك الذي يساعدهم على أن يعرفوا ، اذا جاز التعبير ، الجوانب السيئة في التطور الاجتماعي هو مفهومهم على الانسان المثالي ، انسان الطبيعة البريء من العيوب التي صنعها التاريخ : بيد أن هؤلاء الفلاسفة كانوا يعتبرون في الوقت نفسه ، على أنه حدث ضروري وميمون ، وجود « المجتمع المدني » حين يظهر أثر العلاقات الاجتماعية الواسعة بصورة نافعة ، مغنيا الحضارة وساميا بالانسان . ومثال ذلك أن ديدور ماكان يقيم أي تعارض مطلق بين حالة الطبيعة وحالة المجتمع .

كان « الانسان الطبيعي » يصبح دونما أي ضرر « الانسان المساس(١) » ، وكان المجتمع يصبح نموذجا للتناسق لولا مساوىء اولئك الارستقراطيين الذين عودتهم الاجيال على السيطرة ، والكهنة الذي يلقون الاوهام في روع الشعب وفي رأي الفلاسفة ان أثمن ثمار التقدم هي ظهور حسن الروح الاجتماعية وانتشار الانوار ، ونمو العمل على حساب قوى البربرية ، ان الاساس المادي لانطلاقة الحضارة ، الاخلاق هو شطور التجارة والفنون الميكانيكية وتشكل الدول القومية وامتداد سلطان الانسان على الطبيعة وعلى اهوائه الخاصة . وعند فولتير ان حل الشر الاجتماعي يتم بالقضاء على بقايا نظام الرق والوقف ، وتعليم الفلاحين كيف يبتاعون جيدا ويبيعون جيدا وتحرير التجارة والصناعة وتنظيمها بصورة جيدة .

ان الحماقة والتكبر ، والجهل ، هي جميعا في جانب الكنيسة وأصحاب الامتيازات . وان الظاهرة المطمئنة ، الظاهرة المرضية بالنسبة الى « الفيلسوف الفضيل » هي كون العلم والوعي السياسي يطردان دون هوادة التطير والاحترام الاعمى للحكم المطلق . وان التقدم الفكري هو الرجاء الاعظم . ولقد كانت الانسانية على الاخص فريسة الاعتماد المتكتم تارة ، العلني تارة ، العديم الرحمة ابدا ، بين الملوك الطغاة والكهنة الطغاة . أما الخلاص ليكون بالاضفاء الى نصائح الحكماء . وبهذا الشرط سوف يتلاشى في المستقبل كل ما كان يعوق تطور العقل والحياة العاقلة .

ان هذا التقدير المتفائل هو ما ينكره روسو بصورة قاطعة في **مقالته** ، بل ان فكرتي « العقل » و « والانوار » نفسهما يبعثان الشك فيه ، انه يقدم نفسه باصرار على انه انسان عامي « لم تمنحه السماء مطلقا مواهب كبيرة » ، على أنه كائن شريف ، لكنه لا يعرف شيئا ، ولا يجحف نفسه حقها بسبب في ذلك . وهذا لا يمنعه على أية حال من ان يورد بغزارة سقراط وافلاطون واوفيد وهوارس وبلين وبيترون وسينيك ، وأخيرا مونتيني الذي أدرك تفوق المتوحشين على الفرنسيين المساسين ، بالرغم من أن الاولين لايرتدون أحذية عالية الساق .

ويحاول روسو ، وهو يرسم تقدم الحضارة المغري ان يبين ان لهذا التقدم خاصة خطيرة جدا : « ان العلوم والآداب والفنون ... تنشر أكاليل من الورود فوق السلاسل الحديدية التي تثقل البشر ، وتخنق فيهم الشعور بتلك الحرية الاصلية التي يبدو أنهم ولدوا من أجلها ، وتجنب اليهم عبوديتهم » وهذا فان الحرية مرادفة للحياة البدائية ، وذلك هو أول معنى نصادفه لهذه اللمة .

وان مجرد هذا الواقع البسيط ، الا وهو ان العلم والفن يضاعفان في حاجات الانسان ، يشف سلفا في ذاته امكانية فقدان الحرية « ان سائر الحاجات التي يطالب بها الشعب هي سلاسل يثقل بها نفسه » . واذا أردنا ان نأخذ مثالا في العصور القديمة ، فان الاضطهاد المقدوني — الذي يكرس ضعف المدن الهيلينية — هو نتيجة انحلال الاخلاق ، وتقدم العلم ، و ... حب الشعر .

ان الفضائل الحقيقية لا وجود لها بالنسبة الى روسو الا عند الشعوب القليلة الاستنارة : انه يعارض المصريين ، والاغريق ، والبيزنطيين ، بالفرس والسكيبين ، والجرمان ، والهنود الاميركان ، وان ما يجتذبه فيهم ليس القوة الحكمية البدائية ، ولا الطاقة المجردة عن كل ضابط اخلاقي ، بل « البساطة ، والبراءة ، والفضيلة » . وحتى في اليونان القديمة يجد « جهدا سعيدا » ، العصور الهوميرية فقط .

لقد كانت آثينا في القرن الخامس ، بالنسبة الى فلاسفة الانوار ، المركز الامثل للشعر والفن والفلسفة والبلاغة ، لكن روسو يصور حضارتها على أنها لم تتبع سوى في « نسبة كسالى الاجناس المقبلة » ، انه لا يضمر الاحترام سوى لمدينة سبارطة الفظة ، العسكرية والمتأخرة ، وذلك لانها طردت الفنانين والفلاسفة ، فيدعوها « جمهورية انصاف الآلهة » وانه ليفتر بالنسك السبارطي ، ان الرموز الكبرى لروح الاستقصاء ، والتعطش الى المعرفة ، الاله المصري توت مثلا — الذي

(1) Chomme policé

يدعوه توتوس – أو بروميتوس ، تكاد تكون بغيضة عنده ، فيتساءل عن الحقيقة التي يمكن أن نجدها في تلك الرموز ، مادام الفن قد ولد من الترف ، وعلم الفلك من التطير ، والبلاغة في الطموح ، والهندسة في البخل ، والفيزياء من فضول باطل ، ومجموع هذه الامور من الكبرياء البشرية !

ومن الطبيعي ان هذه الافكار متناقضة ، لكن روسو كان يعتبر التناقضات محتومة ، ولسوف يقول في الكتاب الثاني من **الليل** انه « يجب على المرء أن يصفها عندما يفكر » ، وأنه من الافضل ان يكون المرء انسانا ذا تناقضات في ان يكون انسانا ذا أوهام .

والحقيقة أن تناقض المقالة الاولى لا ينتج لا عن مزاج الكاتب بل عن تناقضات الواقع الحادة ، هذه التناقضات التي أدركها روسو ، لكنه لم يكن يستطيع ايضاحها تماما والتغيب عليها . ان روسو ، اذ يتحدى الرأي السائد ويؤكد أن انسان التاريخ لا يمكن أن يكون سعيدا وحرا ، انما كان يهدف في واقع الامر الذي يدين العبودية ، والطغيان ، والحروب المسببة عن اشتهاء ثروات الغير ، كان يضع ماضيا اسطوريا في وجه حاضر كريه لم يكن انفتاحه على أي مستقبل سعيد يتراءى له .

لم يكن الانسان في حاجة الى العلوم أو الفنون قبل ان يحيا في مجتمع ، بل كل ما كان يحتاج اليه هو الدين الذي كان ، بتكريسه الجهل والتعظيم من شأنه ، أشبه مايكون بمعنى الفضيلة . وكانت الحجج بشأن دور الدين الايجابي واستحالة معرفة الطبيعة تخدم في المنادة ليس فقط ضد ديكارت الذي رفع سلطة العقل عاليا جدا ، بل ضد ماديي الانوار أيضا . ويتساءل روسو في سخرية : ما الذي تقدمه الفلسفة لنا اذا كان كل من سبينوزا وهوبس ، وبيركلي ودولباخ ، يؤكد وجهة نظره الخاصة دون أدنى اتفاق فيما بينهم ، اذا كانوا يؤلفون « فريقا من المدجلين يصرخ كل واحد من جانبه في الساحة العامة تعالوا الي ، فأنا الوحيد الذي لاأغش مطلقا » ؟ كذلك لا يؤمن روسو بنظرية فلاسفة الانوار القائلة ان العقل قمين بتصحيح طبيعة الانسان التي أخذتها الحضارة ، فيقول : « ان العقل يخدعنا ، أما الضمير فلا يفعل ابدا » .

الصاحي حيال الامتياز

يتحدث روسو ، اذ يشن هذه الحملة ضد فكرة التقدم نفسها ، باسم الطبقات الاجتماعية التي لم تتحسن حالتها برقي الحضارة فتقوية الحياة من جهة واحدة ووجود البؤساء المرير من الجهة الثانية .

ولسوف يؤيد بعد سنة واحدة ، في **الرسالة الى السيد الاب رينال** (حزيران ١٧٥١) ، أنه يفضل حياة القرية على عالم الثقافة والاساليب الرفيعة . « الخشونة بالاحرى من الادب » ، ذلك هو شعاره الذي يفسر الكثير في آرائه ، ولسون يكتب في **جواب على السيد بورديس** « حتى كانت الزراعة تحتل المكانة الاولى ، لم يكن ثمة بؤس ولا بطالة ، وكانت الشرور أقل كثيرا . ولقد كانت صرامة الاخلاق ، والايمان الطيب ، وحسن الضيافة والعدالة تسير جنبا الى جنب مع خشونة الشعوب القديمة » .

وهكذا فان ملهم **المقالة** الاولى هو الفلاح الفرنسي الحي بالاحرى منه « لانسان طبيعي » هذا النموذج المجرد والخيالي ، أو أيضا ذلك « المتوحش الطيب » النموذجي . وان روسو ليدين عالم الحضارة بعيني ذلك الفلاح ، وباسمه يتباهى بلا مبالاته حيال المضاربات الفكرية والانشاءات الشعرية وسائر « المشاغل الفارغة » . ان العمل القاسي يبعث التشكك في قلب المزارع حيال الفنون ورفاهيات الحضارة ، انه لا يقدم الى الحياة سوى مطالب أساسية ، وهكذا تكون الثقافة عديمة النفع بالنسبة اليه .

اننا لا نستطيع ان نفهم **المقالة** الاولى اذا لم ندرك هذه الفرضية الاساسية التي تقول ان العلوم والفنون لا تتجرد قط عن الترف ، وأن الترف يفترض الاثراء بأي ثمن كان ، وان الفضيلة تنقرض في شروط الاثراء الخاص . وان روسو ليتحدث بكل وضوح عن هذا « التسلسل النسبي » في **جواب الى ملك بولونيا** اذ يقول : « ان مصدر الشر الاول هو التفاوت ، ومن التفاوت نتجت الثروات . ذلك ان كلمتي الفقير والغني نسبيتان ، وحيثما يكون البشر متساوين من يكون ثمة أغنياء وفقراء . ومن الثروات ولد الترف والبطالة ، ومن الترف جاءت الفنون الجميلة ، كما نتجت العلوم من البطالة » . ولسوف يقول روسو في مكان آخر ان العلوم والفنون هي تسلية العاطلين – فهي بعيدة عن ان تكون خيرا للشعب . وانه ينتج بكل تأييد في مثل هذا النص ، بالنسبة الينا وليس بالنسبة الى روسو ، أن العلوم والفنون لن تشتمل على أي عنصر معاد للشعب في مجتمع ينعدم فيه التملك الخاص للثروة الاجتماعية ، وعندئذ توزع بكل حرية حسناتها الخاصة ، هذه الحسنات التي نفى مؤلف **المقالة** بشدة دائما أنه ينكرها .

وفي الحقيقة انه سيكرر في **جواب على السيد بورديس**

أنه لايقترح مطلقا حرق المكتبات وتدمير المعاهد والاكاديميات ، كما استضيف انه لا يقصد مطلقا ان يجعل البشر يكتفون بالضروري وحده : « ان العلوم هي رائعة العبقرية والعقل ... ونحن مدينون للفنون الميكانيكية بعدد كبير من الاختراعات النافعة التي زادت من ملذات الحياة وسهولتها . هذه حقائق أوافق عليها بكل تأكيد من صميم قلبي » .

ولقد سبق أن وافق في **جواب الى ملك بولونيا** على أن « العلم جيد جدا بحد ذاته » ، وأن الامراء اليوم ، في العالم كما هو حاليا ، يجب أن يشجعوا العلوم والفنون ، وذلك في نفس مصلحة الشعوب ، والا فان الشرور باقية ، وسوف يضاف الجهل اليها اذن . ان جوهر القضية هو أن روسو يريد أن يرى « العلم والفضيلة متحدان في سبيل سعادة الجنس البشري » ، لكنه يائس من تحقق هذا الانضمام خارج عدد قليل من الناس ، خارج « بعض النفوس المحظوظة » .

انه يعتبر ، هو الذي اضطر الى قول الحقيقة دون أي تحريف ، أن المجتمع الخالي من الشر ، والقسوة ، والكذب ، لم يوجد الا « قبل اختراع هذه الكلمات الفظيعة ، ألا وهي **هذا لك وهذا لي** » وأنه « قد وجد أناس على درجة من الفظاعة بحيث وجدوا الجرأة على أن يملكوا فائضا عنهم بينما كان أناس آخرون يموتون جوعا » . ولكن العلوم والفنون لا تنفصل تاريخيا عن هذا الفائض ، عن هذا الترف الملعون .

ان مأساة روسو ، مأساته التاريخية ، هو عجزه عن تصور مجتمع تختلف الاحوال فيه . ان الفكرة الباطنة التي تسكنه هي لا أخلاقية هذه الحضارة القائمة على المال . « اننا نحصل بالمال على كل شيء ، ماعدا الاخلاق والمواطنين » . ومن هنا النتيجة : أملكني القوة ... خلصنا من الانوار ومن فنون آبائنا المشؤومة ، ورد الينا الجهالة ، والبراءة ، والفقر ... » ان هذا النظام لمتماسك ومنطقي تماما ما دامت الظروف الاجتماعية هي بحيث لا تستطيع الفنون والعلوم أن تحيا الا في ظل الامتياز الاجتماعي ، وهو لا يصبح واهيا الا حالما يصير العلم والفن جزءا من ميراث الجماعية الكادحة بدلا من أن يكون تابعين لترف المحظوظين من أصحاب الامتيازات ، واذا اردنا شيئا أكثر من الدقة قلنا حالما تعي هذه الجماعية ذاتها ، وتعي مستقبلها ومسؤوليتها حيال سائر فوائد الثقافة الكبرى .

ان الشغيل الذي « يموت جوعا » والذي يحاول روسو أن يعبر عن مشاعره هو الفلاح والعامل اليدوي في وقت واحد ، لكنه الفلاح في الدرجة الاولى ، ولسوف يقول فيما بعد ان الشعب الحقيقي موجود خارج المدن ، وان القرى هي البلاد الحقيقية ، وان شعب الارياف هو وحده الذي يشكل السكان . ونحن نقرأ في الكتاب الاول من **أميل** : « ان المدن هي هاوية الجنس البشري » . وان هذه الافكار عن نتاج القرن الثامن عشر ، حين كان الكثيرن يعتقدون أن الزراعة تشكل أساس الحياة الاجتماعية . وحتى دولباخ — وهو من بين الفلاسفة أبعدهم عن رسو — يرى الفقير قبل كل شيء في ثياب المزارع . وكان الفيزيوقراطيون الذي يمثلون الاقتصاد السياسي لذلك العصر يعلقون رخاء البلاد على تطور الزراعة . وكذلك فان المثل الاعلى الطوباوي الذي تقدمه **وصية** جان ميسليه هو شيوعية زراعية . وليس في ذلك كله ما يبعث العجب : فالرأسمالية لم تكن قد تطورت في ذلك الزمن ، والعدو الرئيسي للشعب هو الاقطاعي الكبير ، والقضية المركزية هي قضية قلب الاقطاعية . وهذا هو السبب في أن روسو ، رغما عما يضمره من احترام عميق لعمل العامل اليدوي ، يسبغ صفته المثالية على المزارع في الدرجة الاولى ، معتبرا اياه ممثلا المعواطف « الطبيعية » وتجسيدا « للفضيلة » .

ومهما يكن من أمر ، فان هذه الآراء تتخذ أحيانا صفة معارضة الاقطاعية فحسب ، بل معارضة البورجوازية أيضا : « ان معارضة السياسيين القدامى كانوا يتحدثون دون انقطاع عن الاخلاق والفضيلة ، أما سياسيونا فلا يتحدثون الا عن التجارة والمال » . وانه ليعتبر الثراء متنافيا مع الشرف والشجاعة ، انه ليستشعر سلفا ، في شيء من الحدة ، بالجوهر اللاانساني للرأسمالية الفنية ويجد دلالة رهيبة على العصر في هذا الواقع ، ألا وهو أن ثمة بلدانا يباع فيها العامل ويشرى لقاء الذهب .

ونقرأ في **جواب على السيد بورديس** : ان من نصيب الشعب الأعمى والابله وحده أن يعجب بأناس يقفون حياتهم ليس في الدفاع عن حريتهم ، بل في سرقة وخيانة بعضهم بعضا في سبيل أرضاء ليونتهم وطموحهم ، ويجرؤون على تغذية بطالتهم بعرق مليون من البائسين ودمهم وأعمالهم » . واننا نورد ذلك دون أن ننسى أن أفكار روسو عن النظام الذي سيحل مكان المجتمع الاقطاعي هي على درجة كبيرة في الديمية .

ومما تجدر ملاحظته أن روسو يدين الاستعمار بعنف ، فتقرأ في **جواب على السيد بورديس** أنه إثم كبير : « ماذا كنا اذن ، أرجوك ، عندما قمنا بذلك الغزو لاميركا الذي يعجب الناس به كثيرا ؟ ذلك يعني أن الأناس الذين يملكون مدافع ، وخرائط بحرية

وبوصلات ، يمكنهم أن يرتكبوا المظالم ! أيقال لي ان هذا الحادث يشير الى قيمة المغزاة ؟ انه لايشير سوى الى حيلتهم ومهارتهم ، انه يشير الى أن رجلا حاذقا وذكيا يستطيع أن يحصل من نشاطه على النجاحات التي لايتوقعها الانسان الشجاع الا من قيمته »(١) . وان روسو ليدفع التعذيب بوصفه أداة للاستعمار .

وانه ليرفض في النص نفسه احتراف مهنة الحرب: « ان الحرب واجب في بعض الاحيان ، لكنها لاتليق قط أن تكون حرفة . ان من واجب كل انسان أن يكون جنديا من أجل الدفاع عن حريته ، لكن أي انسان لايجوز له ذلك كي يجتاح حرية الآخرين ، وان الموت في خدمة الوطن لعمل جميل جدا بحيث لايجوز تكليف المرتزقة به » .

ولسوف يحتج روسو أيضا في مؤلفاته التالية ضد كل وضع « نرى فيه السياسة تحصر في جزء مرتزق من الشعب شرف الدفاع عن القضية المشتركة » و « المدافعين عن الوطن يصبحون عاجلا أو آجلا أعداءه ، يمسكون الخنجر مرفوعا أبدا فوق أعناق مواطنيهم» . وانه لمن سوء الحظ أن يكون هذا النص ذا باع طويل في القدرة على التنبؤ !

واذا كان روسو يحتج ضد حضارة أصحاب الالقاب والأغنياء ، فانه في الوقت نفسه أسير الأفق الضيق لبسطاء الناس من الفلاحين والحرفيين الذين لم ينجرفوا بعد في تيار سياسة قومية النطاق . ان روسو ، اذ يراوده الشك حيال العواصف السياسية والانقلابات التي لايكسب الشعب منها شيئا في أغلب الأحيان ، واذ يخشى على حد قوله من اسالة الدماء حتى في سبيل قضية الحرية ، لايعبر عن احتجاج شغيل ذلك العصر فحسب ، بل يعبر عن سذاجته وتخلفه أيضا . ومهما تكن وجهة النظر التي نتخذها ، فلا بد أن ننتهي الى هذه النتيجة ، ألا وهي أنه لايكتفي بتمثيل القسم الأكثر فقرا في المجتمع ، بل يتوحد معه ويفكر مثله .

ان روسو يؤكد ، حيال المجتمع الراقي ، حريته العامية ، حقه في ألا يشبه أحدا ، حقه في العزلة ، وفي الاستسلام بكليته لأفكاره الخاصة ولما عاشه من انطباعات خاصة أيضا ، انه لايريد أن يكون الانسان « المصطنع » ، « الانسان الحسن العشرة ، الخارج عن ذاته أبدا ، (الذي) لايعرف أن يعيش الا في رأي الآخرين » ، انه يقصد أن يجعل من جديد ثرواته الباطنة.

(١) للمزيد عن موضوع الاستعمار ، راجع «العقد الاجتماعي » ، الكتاب الاول ، الفصل التاسع .

هذا المبدأ عن الشخصية العامية الأصيلة ، المستقلة التي كثيرا ما أسيء فهمها وكثيرا ما شوهت من قبل المعلقين ، هذا الميل الى العزلة ، الى الحياة المتوحدة (كان هتيف الايرميتاج يفضل تناول العشاء مع المعماريين بالاحرى منه مع السيدات الراقيات) ، هو ما يعبر عنه روسو منذ خاتمة **مقالته** حين يورد أبيات ادفيد : « أنا ههنا متوحش ما دام الناس لايفهمونني » .

ان روسو يمعن في ذاته ، كما لم يفعل أي انسان آخر في فرنسا القرن الثاني عشر ، المرارة المتراكمة في قلب الشعب . « الأجير العبقري » ، هذه الاهانة يوجهها اليه جاك مارتيان الذي يرى أن روسو يخطىء اذ يطالب، بالحرية، وذلك بالضبط على قدر ما «تشكل حالة العبودية حالتنا الطبيعية» . والحق هو أن روسو ، العامي هو نفسه ، قد اتخذ اللهجة اللاهبة ، الحاسمة التي يتميز بها ممثلو الجماهير الشعبية في أوقات المعارك الطبقية الكبرى . وكما يشير الى ذلك رومان ردلان ، فان روسو لم يتوقف قط في منتصف الطريق ، ولم يعتد التلاعب مع الافكار . لقد كان انسانا جديا بصورة رهيبة .

ان أوقات الثورة تتطلب دائما شخصيات قمينة بنضال بطولي وعنيد . ويقول غريم عنه ، وهو أحد معاصريه ، انه ولد متمتعا بسائر الخصال التي تجعل منه زعيم شيعه ، انها الرزانة ، وليس الرغبة في اللعب مع التناقضات ، هي التي تتبدى في ذلك الحزم الذي يقتطع به روسو بضربة واحدة كل الحضارة كي يتبع الحرية .

ان صيحته الآنفة الذكر : « أيها الاله الكلي القوة ، رد لنا الجهالة» ، وتمرده على الحضارة يذكرانا بلحظات عديدة من التاريخ . ومثل هذا التمرد لايفتأ عن أسباب أخلاقية وسياسية خالصة ، بل ان له أسبابا اقتصادية أيضا . فقد كان الانتاج اليدوي والمانيفاكتوري في القرن الثامن عشر في خدمة الطبقات المالكة بالدرجة الاولى ، وما كانت الجماهير الكبيرة التي تحيا في الارياف ذات الاقتصاد المغلق تستهلك شيئا من مواده . ان الصناعة الرأسمالية المتطورة هي وحدها التي ستكشف الستار عن امكانية الاكفاء الواسع لحاجات سائر أعضاء المجتمع ، وحتى هذا الاكفاء ستعترض سبيله سيطرة الملكية الخاصة . أما الفكرة القائلة ان الموقف الصحيح الوحيد هو الاستغناء عن الثروة وانضاب ينابيعها نفسها فلم تفعل سوى التعبير عن الاحتجاج الصادر عن الجماهير الشعبية ضد الطبقات الحاكمة منذ العصر الوسيط المتقدم . وان هذه الاتجاهات لتحتاز تاريخ انكلترا

وفرنسا وايطاليا : وليس سانونا رولا ، زعيم فقراء فلورنسا ، سوى أشهر زعمائها ، ويقول ماركس في **المخطوط الاقتصادي الفلسفي** عن هذه العدمية الديموقراطية للثروة والثقافة : « أما الى أية درجة لايشكل هذا الالغاء للملكية الخاصة شيئا في التملك الحقيقي ، فبرهان ذلك يقدمه لنا بالضبط الانكار المجرد لكل عالم الثقافة والحضارة ، والعودة الى البساطة **المضادة لطبيعة** ، بساطة الانسان الفقير وغير المحتاج ، الذي هو أبعد ما يكون عن تجاوز مرحلة الملكية الفردية ، بل هو بالاحرى لم يبلغها بعد » .

وغني عن البيان أن جان جاك روسو ليس سافونارولا ، وهو أبعد ما يكون عن الافتقار الى الثقافة وعن الهوس . انه أول انسان غني بالثقافة يستدير عن ثقافة الاغنياء .

وغني عن البيان أيضا أن موضوع البحث هنا هو ثقافة القرن الثاني عشر التي تتحد قبل كل شيء ، بالنسبة الى ناقدها ، مع الأذواق الارستقراطية ومع أخلاق الصالونات . لكنه ينبغي أن نكرر أنه حيثما يتحدث روسو عن صميم الحضارة مبينا أنها غريبة عن الشعب ، فان نقده لاينال دولة الحكم المطلق الاقطاعي فحسب ، بل عالم رأس المال أيضا . ان فلاسفة الأنوار ، أعداء الهمجية وتزهد العصر الوسيط ، لا يبينون سوى ما لمبادىء الحضارة من أثر حسن ، ولايسبرون غور ما في هذه الحضارة من عداء حيال الشعب . أما روسو فانما ينتابه التشكك حيال الثقافة لانها لم تحسن حياة الجماهير . ويكرس فلاسفة الأنوار كل مغالباتهم في سبيل نسف أسس الدولة الاقطاعية كي يشقوا الطريق أمام الثورة البورجوازية ، أما روسو ، وهو الأقرب منهم الى الشعب ، فيثبت أنه أثقب نظرا منهم اذ يسبقهم جميعا الى صيانة هذه الحقيقة ، ألا وهي أن التطور التاريخي لعصره لايشكل صعودا متناسقا ، لايشكل دربا مستوية وسهلة يتقدم العقل والحرية عليها بصورة مرضية للجميع ، بل ان الامر على نقيض ذلك ، اذ أن هذا التطور ذو طبيعة متناقضة ، وهو يتضمن مصائب ثقيلة بالنسبة الى غير المالكين .

ويذكر روسو بجوناتان سويفت ، الذي لم يكن يعرفه والذي يختلف عنه على أية حال كانسان ومفكر وكاتب . فحين يصف سويفت المجتمع المثالي يجرده حتى عن المظهر الانساني . ان الجياد الحكيمة أوينهام تحيا دون قوانين مكتوبة ، ودون دولة ، في ظل نظام بطريركي مثل متوحشي روسو ، وهي مثلهم سابقة لكل تطور تاريخي وخارجة عنه .

ان المواطن روسو يعارض الفيلسوف ، والسبب في هذا التجابه وجود هوة في فرنسا تلك الأيام بين مفكري الطبقة الثالثة وبين الجماهير الشعبية التي لم يصبح لها مفكروها بعد . وبقدر ما سوف يتقدم القرن ، سيقل اصدار روسو على التضاد بين الأناس المثقفين والجهلة : **فالعقد الاجتماعي وهيلويز الجديدة** يؤكدان امكانية وجود مشرعين شرفاء وفلاسفة انسانيين .

ان **المقالة في العلوم والفنون** تذكر نا بطابعها واسلوبها بخطاب ألقي مباشرة على المستمعين بالاحرى منها بدراسة نظرية . انها تحد جسور يستقيم معناه في أن النفوس البسيطة ، الناس الكادحين والمحرومين ليسوا بحاجة الى الالقاب أو الثروات أو تبحر العلماء ، ان الهدف انتزاع قناع الهيبة والأناقة والثقافة عن وجوه الأثرياء والسادة الكبار .

وطبيعي أن التأكيد بأن الحضارة معادية للانسان يشكل نتيجة قصوى ، لكنه يحدث أن يفتني الفكر بتطورات خصيبة حين يتخذ أشكالا مبالغا فيها .

احتجاج صارخ ضد التقسيم الاجتماعي للعمل .

ذلك هو تماما وضع المقالة الاولى . ان موضوع روسو ، اذا ما ترجم الى عبارات حديثة ، لا يعدو كونه احتجاجا صارخا ضد التقسيم الاجتماعي للعمل ، ضد القضاء بين العمل اليدوي والعمل الفكري ، ضد أوضاع تقيم عالم الجهد الحكمي في جهة واحدة وعالم الملكية الخاصة ، والثروة ، وكذلك احتكار الثقافة من جهة أخرى .

ان الطبقات المستثمرة تحتفظ لنفسها بامتياز العلم والفن ، فروسو ينتهي من ذلك ، بصورة بدائية ، الى ادانة العلم والفن . وان عقيدته ، مثلها مثل عقيدة موريللي وغيره المشبعة بقسوة الاشتراكيين الطوباديين الأوائل وزهدهم ، بتلك النزعات الى التسوية التي سيرتاع لها هنري هاين أو بودلير ، والتي سيعبر عنها ايمنسكو في **الامبراطور والبروليتاري :**

« حطموا الرخام العاري لفينوس القديمة ،

أحرقوا هذه اللوحات حيث صورت أجساد من الثلج

. . . .

حطموا كل ما يثبت أنه كبرياء أو ثروة » . .

وما يتبقى هو صحة تأكيد روسو الاساسي ، تأكيد التناقض بين العمل الحكمي والعمل الفكري . وان الثورة الاشتراكية التي لم يكن يتوقعها هي وحدها التي ستتمكن ، بالغائها للطبقات المتناحرة ، من وضع حد لهذا التناقض ، وهي وحدها التي ستسمح بأن يتألف المجتمع كله من أناس مثقفين .

ـ يتبع ـ



كيف تبكين الهوى والمنحنى — أنت هدمت الأماني . لا أنا

بسمة كنت على ثغر الصبا — ثم أعرضت فكنت الحزنا

سأل البستان عن أيامنا — ورده الزاهي فألوى . وانثنى

أين عهد اللهو . أين الملتقى — يوم كان العيش والدنيا لنا

كم هزار من تناجينا انتشى — واستعار اللحن منا والغنا

تتم الفجر بآذان الربى — ما لشمس الحب مالت من هنا ؟..

★ ★ ★

ايه يا انشودة نمنمتها — من شفاه الوحي . يا طيب الجنى

انت من شعرى الهوى كل الهوى — والأماني من حلومي والمنى

أنا لولاك لما اختالت على — أغنياتي البيد ... واهتزت دنا

منك اصداء الليالي تيمت — بحة الناي و (كسر الميجنا)

لا تلومي الدهر . هذى خدعة — ألف، دهر لم يفرق بيننا

تلك آمالي ولكن شئت لي — أن أعيش العمر في درب العنا

هكذا الحب . وهذى حاله — للندى قلب . وقلب للضنا

★ ★ ★

حقائق عن السرطان

الدكتور راتب كحالة

السرطان كلمة أطلقت على مجموعة من الامراض تشترك بصفات عديدة أبرزها أن الخلايا الطبيعية لعضو ما في الجسم بدلا من أن تواصل القيام بوظيفتها وتكاثرها وفق نظام محدد فانها تتكاثر بسرعة وبدون نظام وتكون تورما يزداد حجمه بالتدريج . والفرق بين الورم السليم والورم الخبيث أن الاول تتكاثر خلاياه وتنمو ولكن يبقى في غلاف يمنعه من الانتشار ونضرب مثلا على ذلك الثؤلول (أي التالولة) مأا الورم الخبيث أو السرطان فانه غير محاط بغلاف بل ينمو في جميع الاتجاهات وكثيرا ما تنبثق منه خيوط قوية من الخلايا بشكل يشبه الحيوان المسمى بالسرطان . ولو اقتصر الأمر على ازدياد حجم الورم وامتداد أذرعه لهان الامر ولأمكن تخليص المريض منه بسهولة باستئصاله جراحيا أو تخريبه بالأشعة ولكن المعضلة الكبرى أن الخلايا التي أخذت بالتكاثر لاتكتفي بتخريب العضو أو جزء منه بل تنتشر عبر الاوعية الدموية والبلغمية الى نواح مختلفة من الجسم تستقر فيها وتدعى الانتقالات الورمية فيفلت الزمام آنذاك من يد الطبيب المعالج ويفقد الأمل بشفاء مرضه .

السرطان هو مرض المستقبل كما يقال والسل مرض الماضي، فقد أصبح السل في البلاد المتقدمة بسبب اكتشاف أدويته وتقدم الجراحة من الامراض النادرة لذا يعتبر من أمراض الزمان الماضي ، أما السرطان فهو مرض المستقبل لان تقدم وسائل المعالجة للامراض المختلفة الاخرى سيوفر الناس من الموت بها كي يطعنوا في السن ويموت عدد أكبر منهم بالسرطان .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره
تعددت الأسباب والموت واحد

السرطان هو القاتل الثاني في البلاد المتقدمة بعد أمراض القلب والاوعية وهو المسئول عن وفاة واحد من كل ستة يموتون في الولايات المتحدة وفي انكلترا، وبتعبير آخر ان سدس الوفيات في تلك البلاد سببها السرطان ، مأا في البلاد المتخلفة اقتصاديا وصحيا كآسيا وأفريقيا فان السرطان قد يأتي في الدرجة العاشرة في ترتيب الامراض المسببة للوفاة ، والسبب ان معظم الناس يموتون بالاراض الحموية والطفيلية واسهالات الاطفال وسوء التغذية والأوبئة قبل أن يبلغوا السن المتقدمة التي ترتفع فيها نسبة الاصابات بالسرطان ، وقد بلغت اصابات السرطان في الولايات المتحدة عام ١٩٥٧ (٥٧٠٠٠٠) اصابة (٢٢٨٠٠٠)منهم رجال و (٢٣٨٠٠٠) منهم نساء وترون أن لافرق يذكر في عدد الاصابات بين النساء والرجال الا أن الغريب أن ٢٥ ٪ من المصابين الرجال يشفون بعد المعالجة فقط بينما يشفى من النساء ٣٨ ٪ وان نسبة الشفاء في ازدياد مضطرد بسبب تحسن وسائل المعالجة وبسبب التشخيص المبكر ، فقد كانت نسبة الشفاء المتوسطة للرجال والنساء عام ١٩٤٠ ٢٥ ٪ بينما أصبحت عام ١٩٥١ ٣٢٪ ولا شك أنها ارتفعت أكثر في السنين الاخيرة .

هذه الاحصاءات التي أوردتها من الولايات المتحدة واننا لا نملك في بلادنا مع الاسف احصاءات يمكن الركون الى صحتها .

الاسباب :

أما الاسباب التي تجعل بعض الخلايا السوية تتورم فمجهولة الى حد كبير ، ولكن ثبت أن التخريش الميكانيكي والتخريش الكيماوي والتدخين وبعض أنواع الاشعاعات كالأشعة السينية وأشعة الشمس على رأس الاسباب المورثة للسرطان .

واثباتا لذلك نذكر أن عالمين يابانيين هما ياماجيوا واتشيكاوا قاما عام ١٩١٥ بأول محاولة لاحداث السرطان تجريبيا في أرنب وفأر وذلك بالمواظبة مدة أقلها ستة أسابيع على دلك جلد بطن هذين الحيوانين

المحلوق بالقطران فتمكنا من احداث سرطان الجلد وأطلق على القطران وما اليه اسم المواد المسببة للسرطان . وتلا ذلك تجارب عديدة أيدت ذلك منها ما قام به السير ارنست كيناواي والسيد كوك عام ١٩٣٢ في لندن اذ تمكنا من عزل المادة المسببة للسرطان في القطران والشحم المعدني كما استطاعا أن يركبا هذه المادة كيماويا وهي معروفة الآن باسم ٣ : ٤ بنزيبربن Benzypren ثم توالت التركيبات الكيماوية المماثلة حتى بلغت المواد المسببة للسرطان ٤٠٠ مادة وهي كلها مواد مائية فحمية Polycyclic hydro carbons وهناك اثبات آخر ان التخريش الميكانيكي والتخريش الكيماوي من الاسباب المهيئة لاحداث السرطان فهناك بعض المهن التي تؤهب لحدوثه ويعتبر السرطان في بعضها مرضا مهنيا ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر كان من أسوأ مظاهر استغلال الاطفال وتشغيلهم بتنظيف المداخن في أوروبا وكانوا يعملون شبه عراة فيؤدي ذلك الى تخرش شديد في الجلد وخاصة في الصفن (أي كيس الخصيتين) مما يؤدي عند بعضهم لحدوث سرطان الصفن كل ذلك بسبب التخريش الميكانيكي مضافا اليه التخريش الكيماوي بمادة القطران الموجودة في غبار المداخن .

كما أن المشتغلين بالمواد الصباغية وخاصة الانيلين ومشتقاته معرضون أكثر من غيرهم للاصابة بسرطان المثانة حتى اعتبر مرضا مهنيا يتوجب على صاحب المعمل التعويض على من يصاب من عماله بسرطان المثانة .

البلهارزيا كما تعلمون مرض يستقر فيه طفيلي خاص في المثانة فيخرشها تخريشا مزمنا لذا نرى أن نسبة الاصابة بسرطان المثانة عند المصابين بالبلهارزيا أعلى من نسبتها عند غير المصابين وتعلمون أن البلهارزيا مرض واسع الانتشار في القطر المصري .

أما تأثير الاشعاعات في احداث السرطان فالدليل عليه أن الرواد من الاطباء الذين استعملوا أشعة رونتجن في النصف الاول من هذا القرن وأهملوا أنفسهم فلم يلبسوا قفازات رصاصية بأيديهم أثناء الفحص قد أصيب بعضهم بسرطان الجلد وأدى ذلك لبتر أصابعهم . وفي العقد الثاني من هذا القرن وقعت حادثة مفجعة في مصنع لطلاء ميناء الساعات في نيوجرسي في الولايات المتحدة حيث كان الطلاء المضيء يحتوي كمية دقيقة من الراديوم وكانت عادة النساء اللواتي يقمن بعملية الطلاء هذه أن يبللن أطراف فراشي التلوين بشفاههن حتى يجعلنها مدببة وقد أدى هذا الى ابتلاعهن آثار طفيفة من الطلاء المضيء فتسرب بذلك الراديوم الى عظامهن حيث أصبن بسرطان العظم بعد حين اذ أن أملاح الراديوم كأملاح الكالسيوم تحب العظام فتستقر فيها .

وان قصة القنابل الذرية وما أحدثت من أضرار في اليابان معروفة لدى الجميع فان من أسعفه الحظ ومات بسبب الانفجار الاول حرقا أو تمزقا كان أسعد حظا ممن عاش بعد الانفجار واصابته الاشعاعات التي ملأت الجو والتراب والابنية وكل شيء فمات الكثير منهم بعد سنوات عديدة بسرطان الدم كما أن بعضهم ما زال حيا حتى الآن يعاني هذا المرض الوبيل دع عنك تأثير ذلك في المستقبل في الاجيال المقبلة . وان كل تفجير ذري يحدث قد يعرض سكان المناطق المجاورة لمثل ذلك ، فلا غرابة ان هب العالم العربي مستصرخا الضمير العالمي لمنع فرنسا من تفجير قنابلها الذرية في الصحراء الكبرى منذ ثلاث سنوات .

وانه لمن المفارقات العجيبة ان الاشعة التي تحدث السرطان تستعمل لمعالجة السرطان . وان التعليل أن الاشعة ان أعطيت للجلد مثلا بكميات قليلة ولكن بصورة مديدة (١٠ سنوات مثلا) تحدث تخريشا خفيفا ولكن مستمرا في الخلايا فيحدث السرطان ويشبه ذلك التخريش المزمن الذي يحدثه الأنيلين في مثانة المشتغلين في معامل الأصبغة كما أوردت ذلك سابقا .

أما أشعة الشمس فمسؤولة الى حد كبير عن احداث سرطان الجلد في الوجه وظهر اليدين حيث يكاد ينحصر سرطان الجلد والسبب أن هاتين المنطقتين معرضتين لأشعة الشمس بكثرة ، وأكثر الذين يصابون هم من الفلاحين وصائدي الاسماك والبحارة ومتسلقي الجبال وان ذوي البشرة البيضاء والشعر الفاتح أكثر اصابة بكثير من ذوي البشرة الملونة ويظهر ان انعكاس أشعة الشمس على البشرة البيضاء أكثر تنبيها وتخريشا للخلايا من امتصاص الأشعة من قبل خلايا الجلد الملون . وان الاشعة فوق البنفسجية هي العنصر المسؤول من أشعة الشمس عن احداث هذا السرطان اذ يمكن حدوثه تجريبيا بتعريض بعض الحيوانات لمدة طويلة لأشعة فوق البنفسجية طول موجتها بين ٢٩٠٠ — ٣٢٠٠ انكستروم ولا يعني ذلك أن أشعة الشمس مضرة ولكن الشيء ان زاد عن حده انقلب ضده .

سرطان الرئة والتدخين :

يحتاج هذا الموضوع وحده لمحاضرة خاصة فقد كثرت الآراء واختلفت حول هذا الموضوع ولا بد لي هنا من أن أنقل اليكم حرفيا ما ورد في تقرير الجمعية الاميركية للسرطان ونشر بتاريخ ١٣ تموز عام ١٩٥٨، يقول التقرير : « لقد تابعنا ١٨٧ ٧٨٣ رجلا مدة أربعة وأربعين شهرا كي نعلم علاقة التدخين بسرطان الرئة تبين أن عدد الاصابات في من يدخنون اللفائف (السجاير) هي عشرة أمثال فيمن لا يدخنون كما تبين أن عدد الاصابات بسرطان الرئة فقط فيمن يوخنون أربعين لفافة وما فوق يوميا تعادل كل اصابات السرطان ، كل الاعضاء مجتمعة عند من لايدخنون . كما تبين أن عدد الاصابات في سرطان الفم والبلعوم والحنجرة عند المدخنين هي أعلى منها لدى غير المدخنين وانه لينذر جدا أن نشاهد سرطانا في الحنجرة عند شخص لايدخن، ولابد هنا من ذكر ان الادمان على الخمر من العوامل المساعدة مع التدخين على الاصابة بسرطان الفم واللسان والبلعوم كما أن عادة مضغ التبغ من الاسباب المساعدة على اصابة الفم أيضا وان عادة وضع لفافة التبغ أو الغليوم في مكان واحد من الشفة دوما يساعد على اصابة الشفة بهذا المرض في ذلك الموضع » .

ويتابع التقرير قوله : « وهناك أمر مفزع حقا هو أن واحدا من كل عشرة ممن يدخنون ٤٠ لفافة فما فوق سيموت بسرطان الرئة بينما يموت من غير المدخنين واحد من ٢٧٥ ، اذن فاحتمال الاصابة لدى المدخنين هي ٢٧٫٥ مرة أكثر من غير المدخنين .

كل ما تقدم دفع وزارة الصحة في الولايات المتحدة لاصدار التصريح التالي :

« انه لواضح على ضوء هذه الدراسات ان هناك برهانا قويا ان التدخين بكثرة هو واحد من العوامل المسببة لسرطان الرئة » .

وانني أضيف أن المادة السوداء القطرانية المتخلفة في الغليون بعد التدخين ان دلك بها جلد فأر مدة شهر بن يوما أحدث سرطانا في الجلد في تلك المنطقة . ولكن هناك أمرا يطمئن قليلا بعد هذا الفزع الذي أثرته في قلوبكم هو أن التنظيف الجاف لأوراق التبغ بواسطة بعض المواد الكيماوية يخلص أوراق التبغ من معظم الطبقة الشمعية التي تغطيها والتي تحوي المادة الكيماوية المحدثة للسرطان ، فنرجو أن تكون ادارة حصر التبغ والتنباك في الجمهورية السورية تجري مثل هذا التنظيف !!!

ولكن لايغرب عن البال أن الاحصاءات التي أوردتها ومصدرها الولايات المتحدة الاميركية حيث تغسل أوراق التبغ قبل تحضيرها .

والمعتقد أنه بالرغم من أن علاقة العلة والمعلول تبدو ضعيفة بين تدخين اللفافات وسرطان الرئة الا أن صحة هذه العلاقة لن تثبت على نحو قاطع الا بدليل واحد ما زال ناقصا الآن ولن يمكن الوصول الى هذا الدليل الا اذا أغلقت شركات اللفائف أبوابها وعندئذ ستتاح مراقبة الخط البياني لوفيات سرطان الرئة الذي يجب أن ينخفض بسرعة عاما بعد عام وذلك بعد فترة مبدئية تبقى فيها نسبة وفيات سرطان الرئة على ما كانت عليه نتيجة لما يكون قد ألحقه التدخين من أذى سابق ، ولكن أنى لهذه التجربة أن تتم وشركات التدخين في الولايات المتحدة مثلا تبيع ٤٠٠ بليون لفافة سنويا لذا فلا عجب أن تقاوم شركات الدخان الاميركية وأمثالها في العالم نشر الحقائق عن ضرر التدخين وعلاقته بالسرطان .

الهرمونات والسرطان :

من المعروف أن هناك نوعين من السرطان يعتمدان على الهرمونات وهما سرطان الثدي وسرطان البروستات ولذلك يعالج كثير من المرضى اليوم بمستحضرات الغدد الصم فتتلقى المصابات بسرطان الثدي علاجا بالهرمونات الذكرية ، بينما يتلقى المصابون بسرطان البروستات علاجا بأحد أنواع الهرمونات الأنثوية ومع ان هذه الهرمونات لاتقضي وحدها على السرطان الا أنها تحول على الاقل دون انتشاره في الجسم وهي بذلك لاتطيل الحياة وحسب بل تجعلها أسهل لدى المصابين بالسرطان. كما أنه من المعروف أن المصابات بسرطان الثدي يجب أن لايحملن لأن الحمل يشعل النار في سرطان الثدي ويجعله ينمو بسرعة وينتشر الى كل الأعضاء .

كل ذلك يدل أن بين بعض أنواع السرطان والهرمونات علاقة أكيدة ولكن آلية فعلها مجهول .

هل يعدي السرطان ؟

لقد فشلت جميع الابحاث الرامية الى كشف جرثوم لهذا المرض ولكن برزت نظرية الحمات الراشحة (الفيروس) وهي المادة الموجودة في السائل الذي يحصل عليه بترشيح الخلايا السرطانية ، بحقن هذا السائل في الحيوان السليم في الحيوان السليم ويراقب لمراقبة اصابته بالسرطان وقد تمكن العالم راوس عام ١٩١١ في الولايات المتحدة من نقل أحد أنواع السرطان في

الدواجن من حيوان لآخر بهذه الطريقة وأعقب ذلك أبحاث عديدة لم تستطع أن تثبت أن ذلك صحيح في كل أنواع السرطان وفي جميع أنواع الحيوانات، فان هذه النظرية صحيحة في عدد محدود من أنواع السرطان في الدواجن والأرنب البري فقط دون الانسان وبقية أنواع الحيوان لذا يعتبر السرطان مرضا لاينتقل بالعدوى .

ولكن أمكن في السنين الأخيرة نقل السرطان من حيوان لآخر بأخذ قطعة من الورم من حيوان مصاب ثم زرعها تحت جلد حيوان سليم فتنمو القطعة المزروعة وتحدث ورما كالورم الاول ، كما أنه من المعلوم أن بعض من يصاب بسرطان الفم واللسان واللوزة يصاب بسرطان المرىء والمعدة أو الامعاء أحيانا وذلك بانتقال خلايا الورم مع اللعاب الى بقية جهاز الهضم . وقد رأيت شخصيا ثلاث حوادث من هذا النوع حتى الآن. وأكرر أنه لم يثبت حتى الآن ان السرطان ينتقل بالعدوى .

هل يورث السرطان ؟

يروي التاريخ الطبي حوادث لو سمعتموها لتأكدتم أن المرض وراثي حتما ، فقد روى العالم (ووتشل) مثلا أن امرأة وأمها وخالتيها وثلاثا من بنات خالتيها وجدتها لأمها توفين جميعا بسرطان الثدي الأيسر ، ويذكر العالم (ويليمز) حالة عن عائلة توفيت فيها ثلاث أخوات وأمهن وخالتهن وجدتهن بسرطان الرحم.

انه بالرغم من هذين المثالين وغيرهما من الأمثلة فقد ثبت بعد أبحاث طويلة وعديدة أن السرطان لايورث الاستعداد له وأنه قد تكون هناك عوامل أخرى كاضطراب الهرمونات في الجسم أو بعض أنواع الأغذية أو غيرها كثيرا ما تكون متشابهة في العائلة الواحدة هذه الشروط ان اجتمعت مع الاستعداد كونت مرضا ولكن يمكننا القول بصراحة أن المرض لايورث بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة .

هل يصيب السرطان الاطفال ؟

نعم يصيبهم ، فقد عالجت في الاشهر الخمسة الاخيرة بعد عودتي من الولايات المتحدة طفلا عمره ثلاثة أشهر مصاب في ساعده وطفلة في الرابعة من عمرها مصابة في عينيها وطفلا في سن السابعة مصابا بسرطان عقد العنق وطفلة في السادسة مصابة في كليتها فيكون المجموع أربعة مرضى لكنني عالجت في نفس الفترة من الزمن مايربو على المئة والخمسين مريضا من الشباب والكهول والشيوخ ، وقد بينت الاحصاءات أن من أصل مئة ألف نسمة من السكان يموت بالسرطان ٢٥ ممن هم في سن العاشرة وستين ممن هم في سن الأربعين و٤٠٠ ممن هم في سن الستين و ١٣٠٠ ممن هم في سن الثمانين وترون هنا أن المنحنى البياني يرتفع بسرعة فوق سن الاربعين ومن هنا أتت الفكرة القديمة الخاطئة أن السرطان لايصيب الانسان الا فوق الاربعين والحقيقة أنه يصيب الانسان في كل الاعمار وكل الاجناس من ذكر وأنثى ولكن تزداد نسبة الاصابة بشكل واضح فوق سن الاربعين وبهذا يبدو أن السرطان يخالف السل في انتقاء الضحايا فبينما نجد السرطان مولعا بالشيخ الجاف العود نجد السل مشغوفا بالشاب الغض الطري العود . وللناس فيما يعشقون مذاهب .

هل يميز السرطان بين العروق المختلفة ؟

هناك بعض الفوارق بين العروق ولكن الثابت أنه لا يوجد عرق منيع على الاصابة ، فقد ثبت بالاحصاء أن اصابة الصينيين بسرطان البلعوم الأنفي (أي المنطقة الواقعة أعلى البلعوم وخلف الأنف) هي أعلى نسبة في العالم ولكن اصابة النساء الصينيات بسرطان الثدي وعنق الرحم أقل من غيرهم وسبب ذلك مجهول ، كما أنه ثابت في الولايات المتحدة أن الاصابة في النساء الزنجيات بسرطان عنق الرحم أكثر من اصابة النساء البيض ، وتعليل ذلك قلة اعتنائهن بالنظافة الجنسية واصابة كثير منهن بالاراض الزهرية وذلك نوع من التخريش المزمن . بينما يصاب النساء البيض واليهوديات منهن خاصة بسرطان الثدي أكثر من الزنجيات . لقد ورد في تقرير جمعية السرطان الاميركية المنشور في جريدة هرلد تريبيون بتاريخ ١٣ تموز عام ١٩٥٨ أن نسبة الاصابات بسرطان عنق الرحم عند النساء في البلاد التي يختتن فيها الرجال أقل بكثير منها في البلاد التي لايستعمل فيها الختان لذا فان ختان الذكور في سن الطفولة واسطة ناجعة للوقاية من حوادث السرطان التي تصيب المرأة في الولايات المتحدة . كما أن نسبة اصابة الرجال غير المختتنين بسرطان الغلفة أعلى من نسبة اصابة الرجال المختتنين . ولابد لي من الاضافة أن مشاهداتي هنا واحصاءات دار التوليد في جامعة دمشق تؤكد قلة الاصابة بسرطان عنق الرحم في بلادنا بالنسبة للاحصاءات في أوروبا وأمريكا وسبب ذلك عادة الختان المنتشرة في بلادنا .

هل ازدادت حوادث السرطان ؟

الجواب ، نعم . لكن سبب الزيادة نوعان : زيادة وهمية وزيادة حقيقية . أما الزيادة الوهمية فهي أن كثيرا من الناس كانوا يموتون دون أن يعرف سبب وفاتهم اما لعدم مراجعتهم الأطباء أو لضعف وسائل التشخيص وعدم فتح جثث المرضى بعد الوفاة فيبقى سبب الوفاة مجهولا . وأما الزيادة الحقيقية فسببها انتشار عادة التدخين أكثر من ذي قبل وازدياد استعمال المحروقات البترولية في السيارات والبيوت والمعامل مما يؤدي لشحن جو المدن بالدخان . وهناك عامل هام في الزيادة الحقيقية هو تحسين الصحة العامة مما سبب ارتفاع متوسط العمر ، فقد كان معظم الناس في الماضي يموتون باحميات المختلفة كالتيفوئيد والملاريا وذات الرئة ويموت كثير من الاطفال بالاسهالات وسوء التغذية فلا يبقى منهم حيا للسن التي ترتفع فيها نسبة الاصابة بالسرطان الا من وفرته تلك الامراض أو من كان صلب العود قويا استطاع التخلص من براثنها والافلات من أشداقها . لذا نرى أن نسبة الاصابة بالسرطان في البلاد المتقدمة كانجلترا والولايات المتحدة أعلى منها عندنا لان في بلادهم مسنين اكثر من بلادنا ، فان متوسط العمر في الولايات المتحدة ٦٥ سنة للرجال و ٦٩ سنة للنساء بينما لا أظن أن متوسط العمر في بلادنا يزيد على ٤٥ سنة بينما هو في الهند حوالي ٣٠ فقط . وزيادة في ايضاح هذه النقطة أورد الاحصاء التالي :

في انجلترا يموت سنويا ٥١٠ آلاف نسمة بسبب جميع الامراض من أصلهم ٨٥ ألف يموتون بالسرطان ، أي النسبة واحد الى ستة ، أما النسبة في الولايات المتحدة ١/٦ر٩ وفي السويد ١/٧ر٢ ، وفي اليابان ١/١٤ بينما في السيلان ١/٩٠ ، اذن في سيلان يموت واحد بالسرطان من أصل ٩٠ وفاة والسبب هو كما أسلفت اختلاف متوسط العمر بين هذه البلاد المختلفة . يغلب على ظني أن تكون النسبة في بلادنا بين النسبة في سيلان واليابان أي حوالي ١/٥٠ مع أننا لا نملك مع الأسف الاحصاءات المضبوطة التي يمكن الركون اليها اذ أن كثيرا من الوفيات في بلادنا يسجل خطأ اما لجهل هذا السبب أو لاخفاء الحقيقة أو للتطير من ذكر المرض اذ ما تزال في بلادنا عادة يتحاشى الناس بسببها ذكر هذا المرض ولو على ألسنتهم بله تدوينه على الورق كما هي الحال بالنسبة للسل أيضا .

أعراض المرض :

ان السرطان قبل سن الاربعين نادر أما بعد هذه السن فان ظهور تورم في أي مكان من الجسم أو ظهور أية قرحة مستعصية في الجلد أو في الشفة أو في اللسان أو ظهور بحة تستمر أكثر من شهر أو نزيف دموي أو قيحي من أية فتحة في الجسم أو عسر هضم أو امساك مزمن أو صعوبة في البلع كل هذه قد تكون دلالة على وجود السرطان ، فاذا لاحظت هذه الاعراض أو تدهور ملحوظ في الصحة فلا تسكت على مخاوفك بل اطلب الفحص الطبي الذي اما أن يريحك من مخاوفك التي لاموجب لها واما أن يتيح لك أفضل فرصة للعلاج والمرض في مهده .

وقد أجرت جمعية مكافحة السرطان في ولاية نيويورك تجربة لبيان جدوى تنبيه الجمهور لاكتشاف أعراض المرض في أولها بأنفسهم فقامت بحملة قوية في الراديو والتلفزيون والصحف علمت فيها السيدات كيف يفحصن بأنفسهن أثداءهن كل شهر مرة بأن تجس كل واحدة ثدييها باعتناء لاكتشاف وجود تورم صغير فيها ثم أن تتجه السيدة بوجهها نحو الجدار فتضع راحتي كفها على الجدار وتنحني الى الأمام فيتدلى الثديان ، فان وجدت أن أحد الثديين منكمش قليلا فلا يتدلى كالثدي الآخر أو أن يظهر في أحد أقسامه انخفاض في الجلد أو ان لاحظت السيدة في حلمة الثدي غؤورا ، كان ذلك سببا للاشتباه باصابة ورمية فعليها أن تراجع الطبيب الاخصائي بالسرطان الذي اما أن ينفي الاصابة أو يثبتها فكانت نتيجة هذه الحملة أن راجعت العيادات المختصة ٧٥٠٠ سيدة ثبت أن ١٨٠ منهن مصابات بسرطان الثدي في الدور الاول فشفي منهن ١٥٠ شفاء تاما كل ذلك يدل على أن التشخيص المبكر وعدم الاهمال هما اللذان يؤديان لأفضل النتائج ، وانني لآسف أشد الأسف أن أكثر من يصلني للمعالجة بالأشعة قد تقدم عندهن المرض فكثيرات هن السيدات اللواتي يحملن ورما في الثدي يشعرن به منذ سنة أو منذ بضع سنين ولا يراجعن الطبيب الاخصائي اهمالا وخوفا وجهلا ، أما الفقر الذي يدعيه أكثرهن فانه ليس بالعذر اذ لا يمكن أن يرفض أي من مشافي الدولة معالجة مصابة أو مصاب بالسرطان .

المعالجة :

يبدأ السرطان في موضع ما من الجسم كما أوردت ، فان لم يعالج باكرا انتشر الى أنحاء مختلفة من الجسم

بواسطة الأوعية الدموية والبلغمية كما تنتقل بذور **نعناع الماء بواسطة مياه النهر الى كل الامكنة التي** يرويها هذا النهر . ففي الدور الاول يمكن شفاءالمريض بالجراحة أو بالاشعة أو بهما معا . أما الجراحة فتبتر العضو المصاب لكن الاشعة اذا ما أحسنت المعالجة بها خربت النسج السرطانية ولم تؤذ النسج السليمة لان الخلايا السرطانية أكثر تحسسا بالاشعة من الخلايا السليمة . ان الجراحة مشوهة مفقدة للقسم المصاب من الجسم ، لذا تعد معالجة ابتدائية لكننا كثيرا ما نضطر للالتجاء اليها في الحالات التي لاتؤثر فيها الاشعة تأثيرا كافيا لقتل الورم وتسمى هذه الانواع الاورام المقاومة للاشعة كما هي الحال في سرطان الرئة والمعدة والامعاء والمرارة وبعض أورام الاطراف . وقد كانت الجراحة الطريقة الوحيدة للمعالجة قبل اكتشاف أشعة رونتجن والراديوم والنظائر المشعة ، وقد اكتشفت أشعة رونتجن والراديوم في مبدأ القرن العشرين ثم ارتقت الآن وتحسنت أجهزتها تحسنافذا. فبعد أن كانت أجهزة المعالجة الشعاعية لاتتجاوز قوتها المئة ألف فولط في مطلع القرن أصبحت قوة الآلات الحديثة ٢٥٠ ألف فولط ومليون فولط ومليوني فولط ، وقد عملت الولايات المتحدة على جهاز اسمه بيتاترون قوته ٢٢ مليون فولط وقد أخبرني استاذي في جامعة ماربلاند انهم حصلوا على جهاز قوته ٤٠ مليون فولط وكلما قوي الجهاز كلما نفذت الأشعة أكثر الى أعماق الجسم وقتلت الورم دون أن تحرق الجلد .

وقد برز أخيرا للوجود اكتشاف الطاقة الذرية التي فتحت أبوابا جديدة للمعالجة باستعمال النظائر المشعة التي على رأسها الكوبالت ٦٠ واليود المشع والذهب المشع والفوسفور المشع وغيرها .

ان كلا من الجراحة والاشعة يعالج الموضع المصاب ولا يستطيع أن يعالج الجسم كله يعتبر كلاهما اذن نوعا من المعالجة الموضعية لذا فلا بد من ايجاد علاج عام يقضي على خلايا السرطان ولو انتشرت في جميع أنحاء الجسم وهذا بعينه هو الهدف الذي تسعى اليه المؤسسات العلمية والمستشفيات الكبيرة في العالم جميعا . فيجب أن يكون العلاج المرتقب مادة كيماوية تعطى بطريقة الحقن الوريدية أو العضلية أو تحت الجلد أو حبوبا تعطى بطريق الفم لتسري في الدم الى جميع أنحاء الجسم فتقتل المرض في أية نقطة حط رحاله فيها وان العالم كله وعلى رأسهم المرضى ونحن المشتغلون بهذا الفن بانتظار اللحظة الخالدة التي يكتشف فيها هذا العلاج . وهناك أمر يجعل المسألة أكثر تعقيدا مما نظن وهي أن **هذا العلاج لن يكون واحدا بل لابد من ايجاد علاجات عديدة لان السرطان** ليس مرضا واحدا لكنه مجموعة من **الامراض تختلف اختلافا كبيرا** ، فسرطان الجلد مثلا يشفى بنسبة ٩٠٪ بينما سرطان المرارة والكبد لايشفى منه سوى ١٪ وبقية الأنواع تتوزع بين هذين النوعين بدرجة خبثها .

وكمثل أضربه على الابحاث التي تجرى في العالم ما رأيته بنفسي في معهد اسمه (Sloan Katering) الملحق بمستشفى ميموريال للسرطان في نيويورك حيث قضيت آخر سنة من دراستي عام ١٩٥٨ فقد صرف هذا المعهد وحده ١٤ مليون دولار في تلك السنة وجرب ٤٠ ألف مادة كيماوية جديدة على الكلاب والفيران والانسان فتوصلوا الى النتيجة الآتية وهي أن كل هذه المواد لا تفيد الا واحدا يفيد في أحد أنواع سرطانات الخصية وانه لمن المؤسف حقا أننا لانستطيع في بلادنا المشاركة بهذا المجهود العالمي الانساني العظيم لضعف وسائلنا العلمية والمالية . ولكن من المضحك المبكي أن يتطفل على هذا الموضوع أناس لايفقهون عن السرطان ولا عن الطب شيئا ويدعون اكتشافهم العلاج الشافي وآخر من أتى من هؤلاء صاحب فندق في اللاذقية اذ قابلني منذ ثلاث سنوات وجلب دواءه وهو خلاصة حشائش نباتية قال : ان اباه قد شفا أمه به منذعشرين عاما وقد « آجزه » به أبوه كما تقول العامة وقدطلبت منه اثبات ذلك بجلب مريضة يدعي أنه شفاها بهذا الدواء فوعد بذلك لكنني لم أر وجهه لانني نبهته انه مصاب ببحة قد تكون ناجمة عن ورم في الحنجرة وهذا ماثبت لدى فحصه والذي علمته انه توفي بعد سنة ويظهر ان علاجه لم يؤثر فيه (لان السكين مابتقطع بنصابها) . سيستعمل هذا المرض مع الاسف واسطة للشعوذة وابتزاز الاموال كما استعمل السل في الماضي الى أن يأذن الله بالفرج .

هل يشفى السرطان ؟

انه السؤال الجوهري الاخير في هذه المحاضرة والجواب أن لاشيء يمنع من شفائه مطلقا فان وجد العلاج المرتقب شفي كل من يصاب بهذا المرض لكننا بوسائلنا الحالية أي بالاشعة والجراحة نشفي ٣٣ ٪ من مجموع الحوادث كما بينت الاحصاءات في أكثر دول العالم ويجب أن يشفى ٥٥ ٪ على الاقل بوسائلنا الحالية لكن اهمال الناس لأنفسهم وتأخرهم بمراجعة

الاطباء خفضت هذه النسبة من ٥٠ الى ٣٣ واليكم هذا الجدول :

الموضع	نسبة الشفاء	الموضع	نسبة الشفاء
الجلد	٩٠٪	الامعاء	٣٥٪
الشفة	٧٠٪	الكلية والمثانة	٣٠٪
الحنجرة	٥٠٪	المعدة	١٠٪
الرحم	٥٠٪	الرئة	٥٪
الفم	٤٥٪	المبارة والكبد	١ ٪
الثدي	٤٠٪		

وان نظرة بسيطة لهذا الجدول تبين أنه كلما كان السرطان سطحيا كلما كانت نسبة الشفاء أعلى والعكس بالعكس وما ذلك الا لأن الاوعية الدموية والبلغمية في المعدة أكثر منها في الجلد مثلا ولان المعدة متوسطة في الجسم .

أيها السيدات والسادة ان أهم نقطة في موضوع الشفاء هي التشخيص الباكر لذا فلا يهملن أحد نفسه وأكرر هنا للتذكرة والتأكيد ما قلته في بدء المحاضرة .

ان كل تورم في الجسم أو نزف من آية فتحة فيه أو بحة تستمر أكثر من عشرين يوما او نقص شديدبالوزن دون مبرر ظاهر هي عوارض منذرة تجب معها مراجعة الطبيب الاختصاصي أكرر الطبيب الاختصاصي لا العادي او طبيب العائلة والاختصاصيون هم المشتغلون بفرع واحد دون سواه فهم أكثر خبرة من غيرهم به كما أن المختصين بمعالجة السرطان بالاشعة هم أكثر رؤية لحوادثه وخبرة بأنواعه . وأن السبب هو عدم المام الاطباء العاديين الماما كافيا بهذا المرض لانه لا يدرس في جامعتنا كمرض مستقل بينما يدرس في كثير من كليات الطب في العالم .

ولا بد لي هنا من ذكر حادثتين طريفتين تبينان ما للتشخيص الباكر من أهمية في الشفاء الاولى أو أول طبيب في العالم استأصل رئة أصابها سرطان اسمه اغراهام من الولايات المتحدة وذلك عام ١٩٣٣ وقد نجا المريض من اصابته رغم مرور هذه السنوات الطويلة ، ومن المفارقات أن هذا الطبيب بعينه قد أصيب منذ خمس سنوات بسرطان الرئة وأجريت له عملية استئصال الرئة التي أبدعها واذا به يموت بعدستةأشهر ويمشي المريض الذي قد نجا على يده في جنازته والسبب أن الاطباء أكثر اهمالا لانفسهم من المرضى وذلك ثابت بالاحصاءات فكأنهم خلقوا ليعالجوا لا ليعالجوا .

وثاني هاتين الحادثتين الطريفتين عن مريض رأيته في مستشفى ميموريال في نيويورك وهو أهم مستشفى للسرطان في الولايات المتحدة والمريض يعمل ممرضا في ذلك المستشفى أصيب بستة أنواع مختلفة من السرطان أولهما بدأ منذ عشرين عاما وشفيت جميعها وماسبب شفائه الا أنه كان مريضا شديد الوسواس على نفسه يراجع أطباء المستشفى لاقل عرض يشعر به وهو ما يزال حيا يرزق .

واجبنا :

لاتقاس المدنية ويعرف مقدار الرقي في بلاد بعدد مدارسها وعرض شوارعها وارتفاع سوية الحياة فيها بل يقاس أيضا وقبل كل شيء بعدد مستشفياتهاومعاهد البحث العلمي فيها وقدار التعاطف بين أفرادها وعدد جمعياتها الخيرية التي تحدب على المرضى وتحاول تخليصهم من الهوة المرعبة السحيقة التي يقعون فيها يتلمسون طريق الخلاص فلا يجدونه وانني أتمنى أن ينتشر الوعي الطبي في بلادنا انتشارا عميق الجذور ليهيب بالمسؤولين والاطباء والموسرين والجمعيات الخيرية لتأسيس جمعية للسرطان تعمل على نشر المعلومات العامة عنه كما تعمل على تشجيع البحث العلمي ومساعدة المرضى المحتاجين منهم وعائلاتهم على غرار جمعية السل السورية كل ذلك الى جانبتأسيس مستشفى خاص لهذا المرض يحوى على أحدث ماتوصل اليه العلم من أجهزة وأخصائيين .

★ ★ ★

ويسرني في نهاية هذه المحاضرة ان ازف اليكم بشرى تأليف جمعية للسرطان في سورية وقد صدر مرسوم بذلك منذ بضعة ايام ويشرفني ان أكون احد أعضائها المؤسسين وعضوا في لجنتها الادارية ونأمل من الله ان يوفقنا لخدمة هؤلاء المرضى من ابناء امتنا الذين تكبهم الحظ واصيبوا بهذا المرض الوبيل .

الدكتور راتب كحالة

البعض يأكلوه الدجاج

عبد الله عبد

ـ ما الخبر ؟..

ـ ما الحكاية ؟..

هكذا راح يسأل المهرولون الذين جذبهم التجمع.. بينما كانت الحلقة تتكاثف باستمرار في الساحة رقم (٥) من منطقة المرفأ .

كان الوقت صباح يوم من أيام الشتاء . وكانت برودة الجو قد جمّدت الحياة ، فبدا الركون على كل شيء . على الحمالين وسائقي اللوريات وعمال الموازين ، والكتبة والمأمورين والرافعات والمواعين والقاطرات والسفن . وبدا كل ما يتحرك وكأنه ليس راغبا في التحرك .

وكان في وسط الحلقة خمسة رجال لم يلتقوا صدفة . كان اثنان منهم يبحثان عن سيد . الاول قصير، والآخر طويل مشدود جلد الوجه الى الاسفل، بدت عيناه مدهشتين بلهاوتين . وسيد معتمد فرقة التنضيد الخامسة . وأما الآخران فمن عمال الفرقة وفتوتها . وكان يظهران مع سيد في كل المناسبات والأمكنة . وكانت الحاجة لوجودهما بجانبه تتجلى أكثر ما تتجلى في الظروف الحرجة . كانا يبدوان وكأنهما ضرورة لابد منها . لقد وقف احدهما عن يمينه والآخر عن يساره . قال القصير :

ـ أرى أنك قد أتيت بملاكيك الحارسين .

فرد سيد

ـ وجود الشياطين يستدعي حضور الملائكة

ـ ولكن المثل يقول العكس .

ـ ليس كل ما تقوله الامثال صحيحا .

وفكر القصير أن يقطع هذه المقدمة . كان يرى أنها تذهب به بعيدا عن غايته . وكان يعلم أن سيد قمين بأن ينفق النهار بمثل هذه المداورات . « ليس أشطر منه في هذا المجال » وقال أيضا « كان ذكيا دائما وطيبا » .

ـ دعنا من الامثال ياريّس .. ماذا حدث بشأننا ؟..

ـ لا جديد ..

ـ لماذا لا جديد ؟ لقد قدمنا استدعاء منذ شهرين .

وخطف نظرة الى سيد ما لبث أن انطلقت من تلك النقطة في رحلة شكلت قوسا شملت الحوض والسفن والرجال والرافعات والمواعين والبضائع بما فيها الخشب والحديد وزجاجات الاحماض والخيش وكل ما يمكن أن يخطر في بال المرء في مرفأ من المرافىء وما لا يمكن .ثم عادت فاستقرت عليه ثانية .

ـ انتظر حتى يبت في الامر .. الرأي للشركة ..

فرد القصير على الفور

ـ لقد راجعنا الشركة ياريس . فقالت : الرأي للفرقة .

وقال الطويل بلا تمهيد وهو ينظر في وجوه المتحلقين حوله .

ـ لقد أنهينا الخدمة الالزامية منذ ثلاثة شهور.. وها قد مضت ثلاثة شهور لا نفعل فيهـا شيئا ..

ان المرء لا يمكن أن يظل فترة طويلة بلا عمل . وسأله أحد العمال ..

ـ هل كانت الخدمة صعبة ؟..

ـ ليس كثيرا ولكنا اشتقنا الى العمل في المرفأ.. كنا نحصي الثواني .

قال سيّد بلا مواربة

ـ لماذا لاتعملان باليومية ؟..

لقد فكر « ماذا يجدي الهروب ؟ الآن وليكن بعد ذلك ما يكون .. ولكن بلطف . قل له الحقيقة.. قل له انك لاتريده في الفرقة .. هيا قبل أن تفوت الفرصة .. ماذا يوقفك ؟. هل تخشاه ؟. ولكن احمد ليس كالآخرين .. كلا .. كلهم بدأوا هكذا .. ثم انتهوا اخيرا الى عمال مياومة » .

فتساءل أحمد ..

ـ عامل يومية ؟ لماذا ؟..

فرد سيد ..

ـ هناك تضخم في الفرقة

وقال الطويل

ـ اليوميون لايجدون عمـلا دائما .. انهـم يغربلون الهواء معظم وقتهم .. ويسبحون بحبات القمح على الارصفة

ورد أحمد

ـ لسوف أحمل رزقي معي

وفكر سيّد « بدأت الفرقة بثلاثين عامل محاصص.. ثم ماذا ؟. واحد وثلاثون . اثنان وثلاثون . ثـلاثة وثلاثون . خمسة وثلاثون . ستة وثلاثون . سبعة وثلاثون . ثمانية وثلاثون. تسعة وثلاثون. أربعون. فكر قبل أن تشق الباب » .

ـ كيف ؟ أنت ترى أن الموسم كان رديئا هـذا العام .

ـ مهما يكن . فهناك ما يتلهى به عمال المحاصصة دائما . لقد نزلت يوما بعد يوم . ولكني لم أجد ما أعمله دوما . ان عامل اليومية أشبه بالصياد .. يلقي صنارته ثم ينتظر وينتظر حتى تأتيه لحظة يتساءل فيها: لماذا انزل الى البحر ؟ هل أقفر من السمك؟.. هكذا.. ان شعور عامل اليومية شعور انسان يقتعد الرصيف العـام .

ونفذ أحد عمال اليومية برأسه من اطار الحلقـة وقـال :

ـ المرفأ ملك أم المحاصصين ؟.

وغمز عامل حصة محـاولا أن يخفف الضغط المتواتر ..

ـ وأمك أيضا ملك للمحاصصين ..

وعقب آخر ملفع الوجه ..

ـ أن أمه الكريمة تشتغل باليومية ..

وقهقه البعض . واما الآخرون . اما عمال الحصة القدماء الذين يعرفون المتقابلين ، فقد راحوا يرقبون تطور الحوار ، وينظرون الى الامور نظرة اخرى ..

كان أحمد عاملا قديما مرموقا. ولقد نزل الى المرفأ منذ ثلاثة اشهر بعد أن أنهى خدمته الالزامية ، يرافقه العامل ذو العينين المفتوحتين كي يعودا الى عملهما. وكانت فرقة التنضيد رقم (٥) أقل الفرق أعضاء . لقد نصحه بعض الزملاء بالتوجه الى هذه الفرقة . فكان من الطبيعي أن يطلب الانضمام اليها دون غـيرها . وقدم أحمد طلبا . ولكن الزمن يمضي يوما بعد يوم دون أن تلمع في الأفق بارقة أمل .

قال سيد :

ـ لم تعد الاجور كما كانت في الماضي .. اننا ندفع لعامل اليومية أجرا طيبا . وساعات العمـل أمست أقل ..

« هكذا اذن !؟ انكم تدفعون أجرا طيبا » قال في نفسه ساخرا . ووخزته لهجة سيد المتعاليـة . وشعر بالمرارة . وحاول أن يتخطى الحـاجز الذي

انتصب أمامه على غير توقع برغم احساسه بأنه يزداد ارتفاعا لحظة بعد لحظة .

ونفذ برأسه من بين الاسلاك ، وقد تمنى في سره أن يكون ما قدره ليس الا وهماً أملته عليه ظروف عابرة قال :

ـ تعلم ان العمل اليومي لم يعد يناسبني ..

وقال الرجل الطويل :

ـ انه أباه ليس على ما يرام .

ـ ربما كان ذلك مجديا بعض الشيء في الماضي، لان الحال كانت غير ما هي عليه الآن ، ولانه لم يكن ثمة طريق آخر .

ـ ولكن العمال اليوميين يتقاضون أجرا خياليا.. ولا يفضلهم المحاصصون كثيرا .

وبلل أحمد شفتيه الجافتين . لقد أمسى الحاجز حقيقة . وأحس برودة المعدن وصلابته .

ـ لقد نزلت الى المرفأ ياسيد . نزلت . فماذا كانت النتيجة . يوم عمل هنا بعد ثلاثة أيام عطالة. ثم يوم آخر هناك .. ان احساسي بالتفاهة يتفاقم، لكأنني انسان سائب .. انني أريد أن أعمل بين رفاقي القدماء .

« ياله من يوم شتوي شاق يا فارس .. ولكن العمل أصبح لنا .. كل المدخول في نهاية الحفلة .. أوراق ملء اليدين . ومحاسب متواضع يعمل كشوف الحساب وسيجارته تحترق دون أن يمسها ، ولا يلاحق حبات الزيتون بالشوكة في طبق من القيشاني النقي.. آه كم تمنيت أن أتناول الطعام في مثل ذلك الطبق ذات يوم » . هكذا حلمت وأنا أقوم بنوبة حراستي في الليالي . ان كشك الحراسة في الليل يضفي على الاشياء في الخارج سحرا خاصا ويمسي كلما لاتملكه طريفا ولامعا .

وخرج أحد الملاكين الحارسين عن صمته ، وأطل من وراء قناعه .

ـ ما شأن الزيتون في ذلك ؟

وابتسم أحمد بألم وحدث نفسه « اذا لم يعاصر طبق الزيتون فكيف يجوز له أن يعمل محاصصا ؟ »

وقال الرجل الطويل وهو ينظر في وجوه من حوله :

ـ ان لطبق الزيتون حكاية .

وتجاهل الريس اشارة أحمد وقلب يده في الهواء.

ـ ولكن التصور غير الواقع .. لقد تصورت يوما انني سأصبح ملكا .. ان الامر سواء عملت بين أناس تعرفهم ، أم لم تعرفهم . ان العمل واحد .

ورد أحمد مغتاظا .

ـ ان العمل واحد . ولكنني لا أريد أن أعيش على فضلات المحاصصين . انه ليس من العدل ان أعمل باليومية .

يبدو لي انني قديم قدم الاحجار المرصوفة في هذا الميناء .. انه ليس من العدل أن يأكل البعض الدجاج ..

ـ دعك من الدجاج الآن .. وسأسوي الامر في المستقبل .. سأسوي الامر مع الشركة في المستقبل عندما تتحسن الحال .

وقال أحمد لنفسه « ها هو ذا يعود الى نغمة الشركة مرة أخرى .. انه لايريد » ..

ـ ولكن الشركة لا حيلة لها في هذا الامر .. ان قضية تسميتي عاملا محاصصا مسألة تقررها الفرقة .. اعضاء الفرقة .

ونظر في دائرة الوجوه حوله . كان بعضهم من رفاقه القدماء . ثم استقرت عيناه على فارس ، فغض بصره وكأنه يقول له « انني أقبل من ناحيتي . ولكن ماذا بشأن الآخرين ؟.. » .

وتعلق سيد بالطرف من جديد ..

ـ اذا كنت تتصور أن الامر كذلك ، فالقضية ليست في صالحك .. ان الشباب لايريدون ..

ـ كيف ؟! انه لا يحق لأي منهم أن يرفض تسميتي عاملا محاصصا ..

وتقلقلت أرجل الواقفين لتبعث الدفء فيها .

ـ ولكن ما قصة طبق الزيتون .. دعونا نسمعها.

تساءل الملاك الحارس. وقد قصد الى تمييع الجو حين أحسه يتجه لغير صالح رئيسه . وقال أحمد

ـ لماذا لا تسل سيد ؟ انه يعرفها جيدا .

قال الطويل وهو يحاول ان يلفت نظر من حوله:

ـ ان أباه مصاب بالشلل النصفي .. وليس في العائلة قادر غيره .

واندفع عامل يومية ملثم بلفعة حمراء .

ـ انها حكاية الملتزم السابق مع العمال القدماء.. من كان يتصور أن ذلك الكابوس سيزول . هو وكل الجبابرة الآخرين.. انني لأتخيله الآن في ذلك الحانوت الصغير الخرب ، ومئات العمال في الخارج ينتظرون دفع اجورهم ، والسماء تنخل فوقهم مطرا . بينما الملتزم في الداخل وراء طاولته يلاحق في طبق ناصع زيتونا يرفض الاستجابة لشوكته .. يالها من أيام .

وأخذ أحمد نفسا من الهواء ملأ به صدره، ثم نفثه ببطء متلذذا . وود لو احتفظ به مدة اطول ، وأحس بذلك الدور الذي يستشعره البحار حين تلامس قدماه مركبه القديم بعد غياب طويل . احساس ممتزج برائحة القنب والزفت المحروق والاسمدة الكيماوية والجلود والبطاطا والحبال والنباتات البحرية المتفسخة ، وكل الاشياء الجديدة والقديمة، الموجودة وغير الموجودة التي لايزال أثرها قائما ، المتعفنة وغير المتعفنة .

واقترب أحمد من الحاجز من جديد .

ـ هل تذكر ياسيد يوم عطلنا الملتزم . لقد ذهب الجميع في ذلك اليوم الى العمل .. ماذا كان اسم الباخرة ؟ اني لا أزال أذكر اسمها . كانت تدعى بعلبك .. لقد مضى الكل إلا انا . أنت وأنا . « انتما تسوسان العمال .. عناصر هدامة » هكذا كانت حجته لتعطيلنا . ثم منعوا بعد ذلك دخولنا الى الميناء .

وهمس سيد لنفسه « أوه ما أخبثه ؟ لماذا ينكأ جراحا قديمة ؟! ثلاثون . واحد وثلاثون . اثنان وثلاثون .. والحصة الواحدة تصبح من حق اثنين. اذا استمر ينقر على هذا الوتر فقد .. فقد .

وارتفع صوته

ـ هيا يا أحمد اعمل باليومية وسأدبر الأمر في المستقبل ..

ـ لقد سئمت الوعود ياسيد .. ثلاثة شهور مضت وانا أعيش أملاً فأملاً.. أخشى ان قبلت عرضك اليوم .. كلا .. كلا .. ان المرء يبدأ بمقدار صغير من الذل .. ثم .. ثم . ينبغي أن نرفض ما نراه غير سليم منذ البداية .. يبدو لي أنني قد وصلت الى تلك النقطة التي يصبح بعدها الشعور بما هو حقي أمرا صعبا .. اليوم والا سيغدو الامر مستحيلا.

ـ ولكن الشباب لايريدون .

قال الرجل ذو العينين المشدوهتين لمن حوله .

ـ ان المرضى بالشلل لا يستمرون طويلا .. ولكن مهما تكن الحال فقد قال الطبيب أن ما يحتاج اليه هو ..

وضربت القدمان الارض واحدة بعد اخرى وارتفعتا في الهواء تحاولان تسلق الجدار .

ـ مَن من الشباب لايريد ؟.. ان أيا منهم لايملك هذا الحق .. ان فرق المحاصصة مشاعة لكل من انتظم في ذلك الذيل الطويل تحت المطر .

وقال الرجل الملثم باللفة الحمراء :

ـ ثلاثة اتفقوا على اقتناص الدجاج . أحدهم اقتنص فعلق ، واثنان تركاه عالقا وهربا بالدجاج .

ونظر اليه الملاكان الحارسان شزراء وحلق نورس فوق صفحة الماء ثم غط وارتفع يحمل في منقاره سمكة .

ـ لقد تشكلت فرق المحاصصة عندما كنا نؤدي الخدمة الالزامية .. انا لم أهرب من المعركة .. هناك من اشتغل سنكريا ، وآخر في اعمال البناء ، لقد وضعت السلطة يدها على العمل في المرفأ وطردت الملتزم القديم . وأمسى العمال أنفسهم هم الملتزمين .. انه ليس من العدل أن يغلق الملتزمون الجدد فرق المحاصصة في وجهي .. نحن لم نقاتل من أجل هذا .

وحاول أحمد ان يوضح لسيد .

ـ انني لن أقاسم أحدا رزقه .. ان كمية العمل لن تكون هي هي . كلما ازداد المحاصصون .. ازداد شحنهم للبضائع .

وعقب عامل .

ـ أو تفريغها .

وطاشت القدمان في الهواء ، و لامستا الجدار ، ثم بدأتا تنزلقان عندما رد سيد .

ـ ان قراراتنا بالاكثرية .. لقد اجمع العمال على اغلاق الفرقة في وجوه الجميع .. لقد رأى العمال أنه ينبغي عليهم اغلاقها .. انهم يخشون ان تصبح الفرقة أكبر فأكبر .. انهم لن يجدوا حينئذ ما يعملونه .

قال الابله الطويل وهو ينظر في وجوه المتحلقين .

ـ ذكر الطبيب «ان الراحة والدواء كفيلان بانقاذه» . انه لايستطيع أن يترك اباه يموت بين يديه دون أن يفعل شيئا لانقاذه .. انه لجحود ان لم يفعل ذلك .

ونظر أحمد في عيون رفاقه القدماء . وبسط جسورا وشرع يعبرها .

ـ فارس ! هل تذكر ذلك الصباح عندما قمنا باضرابنا الكبير .. ثلاثة عشر يوما .. كيف قدرنا على الاستمرار .. نحن أنفسنا لم نتصور ذلك .. كان الامر في البداية ليس جديا تماما .. ثم بدأ البعض يغذوننا .. هناك دائما من يساند العمال ليس عليهم الا أن يبدأوا العمل .. ذلك الصباح .. انني أذكر الحادثة وكأنها وقعت البارحة .. اليوم .. ذلك الصباح كان المضربون قد تجمعوا في مقهى النجمة ، بعد أن قاموا بمظاهرة في المدينة .. وكنا أنت وأنا جالسين الى طاولة نستعرض ما ينبغي علينا عمله في الخطوة التالية .. ذلك الصباح كان العجوز يتقدمهم والرشاش بيده .. كان الابناء والأصهار والاحفاد حملة المسدسات خلفه .. ذلك الصباح بدأ الاطلاق وساد هرج كبير .. ذلك الصباح سال الدم وفرَّ البعض الى داخل المقهى ، وصمد آخرون ، وأخذوا يقذفونهم بالكراسي .. تصور بالكراسي . إني لأتساءل ماذا كان يمكن أن يفعل العمال لو كانوا مسلحين ذلك الصباح .. ان المرء ليجهل مدى قدرة عمال المرافىء عندما يثورون .

وتوقف أحمد مستطلعا . فرد فارس بحزن .

ـ أنا من ناحيتي لا اعتراض لدي .

ومد أحمد جسرا آخر وبدأ يعبر ..

ـ يوسف ! أنت تذكر ؟.. لابد انك تذكر يوم مضينا الى بيت الملتزم .. كانت جيوبنا ملأى بالديناميت . لقد درنا دورتين .. كان ينبغي أن نرد عليهم .. وتفحصنا المكان .. وبادرنا الى العمل بسرعة .

بوم .. بوم . واهتزت الدار . بوم .. بوم وانتشر الذعر . لم نشأ ايذاءهم وقتذاك ، وانما قصدنا تخويفهم .

وأجاب يوسف وقد حول بصره بعيدا عن أحمد ..

ـ لو ترك الامر لي .. لو ترك الخيار لي .. ولكنني لست وحدي .

وقال الرجل الطويل وهو ينظر في وجوه من حوله .

ـ للمحاصصين صندوق توفير .. ان باستطاعة

أحمد أن يستفيد منه لو كان عاملا محاصصا .. ان للمحاصصين اجازات بأجرة .. ان الاجازة المأجورة شيء جميل . . اذا توفرت الاجازة وتوفر المال استطاع أحمد أن يعتني بأبيه أكثر .

وخطا أحمد فوق جسر جديد .

ـ في السجن ! أنت تذكر يا محمود في السجن.. لقد قبضت علينا السلطة بسبب التفجير .. كانت السلطة في صفهم وقتذاك .. قبضت علينا وتركتهم أحرارا ، مع أنهم هم الذين بادرونا باطلاق الرصاص..

وقال مشدوه العينين وهو ما زال ينظر في وجوه عمال اليومية البائسة .. في عيونهم المتألقة ..

ـ ولكن أباه سيموت لان أحمد ليس عاملا محاصصا ، ولانه لايستطيع أن يأخذ شيئا من صندوق التوفير ، ولديك اجازة باجرة بينما سيد ..

وتوقف الطويل كأنما تذكر شيئا ثم تابع ..

ـ ولكن سيد لم يعد يحس حاجة الآخرين . لقد نسي انه كان عامل يومية .

وبدا الاهتمام في عيون عمال اليومية ، وحلّ الملفعون منهم كوفياتهم كي يسمعوا على نحو أفضل. والتفت الطويل .

سيد ! هل حقا أنك اشتريت برادا وغسالة !.. طبعا ان الدار الجميلة ، تحيط بها حديقة يلزمها براد « وهوفر » .. طوبى لزوجتك .. انها لن تشعر بعد بألم الغسيل .. وسترق يداها وتنعمان ..

في حين كان أحمد في الناحية الاخرى يتابع .

ـ هناك ضربوك .. عذبوك . كان باستطاعتك أن تدلهم على الفاعل .. لماذا لم تفعل .. لماذا آثرتني بآخر سيجارة كنا نملكها ؟. ما الذي حدث لك ؟.. ما الذي حدث لكم جميعا ؟. أنا أخوكم .

ورد يوسف ..

ـ ولكننا أقسمنا يا أحمد .. كنت في الخدمة في ذلك الحين .. ليس من أجلك فقط ، وانما من أجل الآخرين أيضا .. الكل .. كان ينبغي أن نفعل ذلك .. لقد بدأت الفرقة بثلاثين..ثم أمست أربعين.. كان من الممكن أن تصبح مئة .. مئتين.. أنت تدرك ذلك .

وواصل الطويل قائلا وقد بدأ يتقدم نحو سيد ممدود اليدين .

ستصبحان لطيفتين .. وستزول الشقوق القديمة منهما .. وستعرف مدى الفائدة التي يجنيها المرء من غسالة كهربائية عندما تطوقك يداها هكذا .

وانقض عليه محاولا أن يلف يديه حول عنقه . ولكن الملاكين الحارسين حالا دون الوصول اليه . اما أحمد فسرعان ما صرخ قائلا حين أدرك قصده.

ـ بل دعه لي .

وهجم بدوره . فحدثت معركة لم يفز فيها المغيران بغير الجراح . ثم حملهما المحاصصون على سيارة نقل صغيرة قذفتهما خارج الميناء .

ونفضا ثيابهما وسارا صامتين فترة من الوقت ثم أشعل احمد لفافة ، فتشجع الطويل وقال بعد تردد .

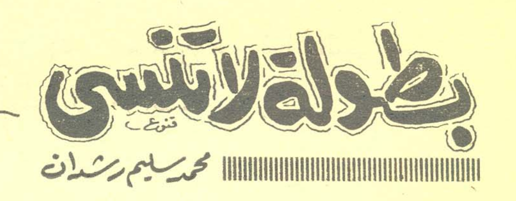
ـ احمد لماذا ننزل الى الميناء ؟.. دعنا نعمل شيئا آخر .. في البناء مثلا ..

وعبّ أحمد نفسا عميقا من الدخان نفثه بقوة في الهواء .

ـ كلا لن أفعل .. يبدو لي أنه ينبغي أن نعمل شيئا من أجل الآخرين .. يا الهي كم كانوا بائسين وجبناء عمال اليومية ..

وأخذ نفسا ثانيا ..

ـ لسوف أواصل نطح الجدار الذي أقاموه .. لن أعمل في البناء أو أي شيء آخر . عندما يبدأ المرء .. عندما يبدأ الاعتراف بالهزيمة فذلك يعني شيئا واحدا .. انه قد انتهى .. إن أحد اثنين ينبغي أن يتحطم . رأسي أو ذلك الجدار ..



أرأيتها •• والغيد في النعماء ترفل بالحرير
تمضي تعانق مدفع الرشاش ينطق بالزئير
وتخوض ميدان الكفاح ترد عادية المغير
تتقدم الشجعان لا ترتاع من هول المصير
سمراء •• لوحها اقتحام البيد في اليوم العسير ؟••
أعرفت ما معنى البطولة ؟

سمراء يا بنت الهضاب الشم من أرض الجزائر
يا شعلة البأس الفتي •• وعزمة الليث المغامر
يا صرخة بعثت كوامن حقدها في كل ثائر
يا نفحة من ذكريات المجد احيت كل غابر
يا صارما يهوى بنور الحق يمحو كل فاجر
المجد ان يذكر دليله
لم يلف غيرك يا جميلة ••

دوى النفير فهز هامات الربى والليل أمسى
وتحفز الابطال كالآساد بل وأشد بأسا
وتسابقوا نحو المنون كانما يبغون عرسا
ليجابهوا كالسيل ابناء الغواية من فرنسا
ويلقونهم في معاني نصرة الاوطان درسا
وعلى شعابهم الطويلة
سارت تواكبهم جميلة ••

يا هولها من ليلة نكراء حالكة السواد
في جنحها المستعمرون تدفقوا من كل وادي
فوج تلا فوجا •• وآخر يقتفيه بلا نفاد
فكأنما حشو العلوج •• فلول زاحفة الجراد
وتقدم النفر القليل يخوض ميدان الجهاد ••
كل مضى يشفي غليله ••
وكذلكم صنعت جميلة •••

وتصايح الابطال : هذا يوم من يبغي الشهادة
لا يبلغ الفوز أمرو •• الصبر لم يملأ فؤاده
لا ترهبوا من وجهة المستعمر الباغي قيادة
هيا أروهم كيف يلقى الموت من يحمي بلاده
وهناك دار رحى المنون وكلهم اورى زناده
ومضت مع الفئة القليلة ••
تبدى بطولتها جميلة ••

اسمعت كيف يلاطم الاعصار اكناف الجبال ؟
أعرفت كيف تدفق البركان ينذر بالوبال ؟
أرأيت نجما ثاقبا •• يهوي الى أقصى منال ؟
وكذلك انقض الاباة •• عن اليمين •• عن الشمال
يتطلعون الى الشهادة بعد ان صدقوا النضال
ولدى الجراحات الثقيلة ••
كانت مع الاسرى جميلة ••

يا أيها السجن الرهيب اما تحدث عن جديد ؟
أتراك أسيت اللبؤة اذ تصفد بالحديد ؟
أو لم تروعك السياط بكف شيطان مريد ؟

أهوت على الاحرار لا تنفك تتبع بالمزيد
فاستقبلوها في ثبات من ابائهم العنيد ..
وتهز قبضتها الكليلة ..
تتوعد الباغي جميلة ..

الفجر أقبل .. حيث قد سكن الفضاء الاوسع
ومفاتح السجان تعبث بالحديد متسمع
ومع القيود تلاحقت فئة تزج وتدفع
تمضي الى حيث الجنود .. تحفزوا وتجمعوا ..
وهناك كان الغدر منتظرا وكان المصرع ..
وبدربهم لمحوا جميلة ..
شمخت بقامتها النحيلة ..

وتواردوا حوض المنية يهتفون ترنما
وعلا لهم صوت جهير شق اعنان السما :

« يا موطنا عبث العدو بساحه وتحكما
ها نحن قد ثرنا وجاهدنا وارخصنا الدما
لنرد عنك المعتدين .. فما يظلهم الحمى .. »
وبهذه الروح النبيلة ..
خروا تباركهم جميلة ..

يا موكب الاحرار .. لا تنفك تتبعه مواكب
ما بين باسلة محاربة وبين فتى محارب
يمضي ويحدو ركبه في نصرة الأوطان واجب
يا موكب الاحرار اقدم لا تروعه العواقب
كم تصنع التاريخ في مغداك وضاء الجوانب
تحمي حماك وتنتخي له ..
وكذلك يحمي الليث غيله ..

عمان ــ الاردن

محمد سليم رشدان

الأدب العالميّ الحديث

تنزيه اليازجي

الادب هو موقف الانسان الفكري في الحياة . وقد اتصف هذا الموقف بصفات عديدة مختلفة وعبر عن وجهة نظر الادباء ازاء الحياة والمجتمع في كل جيل وعصر . وهكذا تعددت وجهات النظر الادبية وعبرت عن اتجاهات عديدة في كل دولة . ولا يسعنا في هذا الحديث ان نبحث في ماهية أدب كل امة على حدة بل اننا نلقي نظرة عامة وكلية على الادب العالمي الحديث.

نعتقد ان الانسان هو نفسه في كل زمان ومكان، انما يعبر عن زمانه ومكانه بالوسائل المادية والمعنوية التي اكسبته اياه الطبيعة والمجتمع ، ويتأثر بالآراء التي تراوده بصدد المشكلات الرئيسية لعصره وزمنه، كما يتأثر بالآراء السالفة فيدرسها ويمحصها ويحاول تقليدها أو العمل على هدمها وبناء موقف جديد منها. فالاديب يقف موقفين متطرفين : ففي الموقف الاول يحاول بناء نفسه من الداخل اذ يفكر ويشعر بكل ما يحيط به فتنعكس افكاره ومشاعره في اعماقه وهذا الموقف ايجابي ، وفي الموقف الثاني يتأثر بآراء غيره من الناس فاما ان يتفاعل ويستجيب لها واما ان يقف معها موقفا سلبيا . وفي هذين الموقفين يتقارب ويتباعد تفكير الناس . وعندئذ لاتقوم حدود حقيقية بل وهمية بين آداب الامم . فالاجدر اذن ان ندرس الادب بشكل مطلق لكي لا يخضع لقياسات ضيقة ، وذلك لان مشاعر الناس تتقارب ، ولو عاطفيا ، في المواضيع الشاملة التي تنبع في قلب الانسان وعقله . ومهما اختلفت الاتجاهات فان الادب يعبر عن موقف ازاء مسألة . وتعتبر هذه المسألة موضوعا يطرقه الفكر ويعكس اضواءه عليه .

واذا قبلنا بهذا الموقف واعترفنا بمبدأ شمول الادب فاننا نستطيع ان نقسمه الى خمسة اقسام :

١ ـ الادب الوجداني . ٢ ـ الادب الوجودي .
٣ ـ الادب الاجتماعي . ٤ ـ الادب الانساني .
٥ ـ ادب الحب . ويجدر بنا ان نلقي نظرة على كل نوع لنتعرف الى عمق الموضوع وجوانبه .

١ ـ الادب الوجداني :

كل تفكير ينطلق عن الوجدان . ويحتم الفكر ان بكون شعورا داخليا يحيا ويتطور في اعماق النفس الانسانية ، وهكذا يحدد الوجدان . فهو اذن الشعور العميق والاحساس المرهف ازاء الكون والحياة . وهو ينبعث عن العقل بقدر ما ينبعث عن الحس والشعور ويعبر هكذا عن حالة فوق عقليته. والانسان وجود وجداني متطور في الداخل بفعل ماهية الحرية التي تعتقه من كل القيود ، مادية كانت أم معنوية ، شعورية او لا شعورية ، وتعطيه صفة الخلق . فالشعور بالوجود والاحساس به لا يتوقفان عند حد بل يتطوران ضمن مفهوم الازلية والخلود أي المطلق. ولذلك كان الوجدان ، وهو حالة فوق عقليته ، **الوسيلة للانطلاق في مجاهل النفس الانسانية .** ويعتبر الادب الوجداني انقى واسمى انواع الادب لانه يغوص في فهم حقيقة الانسان كما يسمو الى الاعلى . ويقسم هذا الادب الى ثلاثة أنواع :

أ ـ الادب الفلسفي :

لايزال الانسان يتساءل عن سر وجوده ويبحث في ماهيته وجوهره • وقد توسع الادب الفلسفي في هذا المجال وألقى اضواء على غوامض الوجدان وما وراء الوجدان وحاول السمو نحو الاضواء البعيدة أي مافوق العقل والطبيعة ، كما حاول توضيح اجزاء اللاوعي تحت اشعة العقل ، واستخلاص الاصول الغامضة والاهواء والافكار بعبارات سيكولوجية • وقد سار هذا الادب على صعيد غامض في التحليل النفساني والميتافيزيقي والعضوي واللاهوتي •

لم يستطع هذا الادب ان يجيب على تساؤل الانسان لانه بحث في مواضيع نفسية وعقلية عميقة بوسائل خيالية محضة • ان قصص دستويفسكي ترينا جوانب غامضة في شعور الانسان وتحاول ان تلقي اضواء عليها لكنها لا تميط اللثام عن غموضها • ان اشخاص دستويفسكي قد روا ان يلقوا الاسئلة العديدة وان يجيبوا عليها بشكل بسيط لكنهم لم يستطيعوا ان يتفهموا الامور اللاهوتية والميتافيزيقية العويصة التي طرحوها على بساط البحث والتي كانت غامضة حسب منطق دوستويفسكي ، وسبب قلق واضطراب ان دوستويفسكي وتولستوي واناتول فرانس واندريه جيد وغيرهم كانوا امثلة عن هذا الادب الفلسفي •

ب ـ الادب الثوري وأدب القلق :

يثور الانسان • وتبدأ ثورته ضد نفسه لانه يعتبرها لغزا وسرا وغموضا • فيقف ازاء نفسه موقف الذات من الماهية • وتزداد هذه الثورة غليانا حتى تصل الى درجة الانفجار • وتقف عندئذ موقف العداء في كل ما هو موضوعي وخارجي • وتتخذ الثورة عندئذ مظهرا جديدا • انها ثورة الانسان ضد الكون • فالكون والنفس، اصبح سرا كما اصبح ذاتاوموضوعا وتثور ذات الانسان على ذات الكون • وتنطلق الثورة من جديد فتأخذ طابعا جديدا ايضا ، طابعا اجتماعيا • فيثور الانسان عندئذ ضد المجتمع والقيم البشرية بشكل عام •

هكذا تكون الثورة • ثورة الانسان ضد نفسها لانه يجهلها ، وثورته ضد الطبيعة لانها تقف ازاءه متخذة صفة الذات او الموضوع ، وثورته ضدالمجتمع وقيمه لانه لا يعتبر المجتمع وسيلة للخلاص • ويعيش الانسان في دوامة من القلق والاضطراب • وتتخذ هذه الثورة مظهرين : المظهر المادي والمظهر الروحي ، أي الثورة المادية والثورة الروحية • وينقسم الادباء الفلاسفة الى قسمين ، الثوريون الماديون والثوريون الروحيون • فالماديون يقلبون مبادىء الكون ويحولونها الى مبادىء ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ويضعون قوانين ثابتة للانسان والمجتمع مما يؤدي الى حتمية التاريخ • وهكذا يقيد الانسان ويخضع للقوانين التي وضعها لنفسه ولا يخرج عنها ، فيثور ضدها • ان اصحاب هذهالنزعة يزيدون من ثورة الانسان وقلقه وبالتالي من فوضيته كما يضعونه في قالب ويقيدونه بقيود ابدية ، فيشعر ان الكون محكم الاغلاق من حوله ، كما يشعر انه في قفص من ذهب ، فيثور لهذا التحدي القسري والاجبار والحتمية • اما الثوريون الروحيون فهم هؤلاء الذين يثورون على كل ما يقيد الانسان ويدعون الى انطلاقه في عالم الروح ويعتمدون على الحرية • وهم لهذا يطلقون طاقاته بشكل روحي لا بشكل غرائزي كما يفعل الماديون • اما اصحاب مبدأ القلق امثال كيركغارد فانهم يعتقدون ان القلق يدفعهم عند اكتشاف معطيات الروح والحقيقة ولكن بعضا منهم ، وعلى رأسهم مافكا في كتابه « المسخ » يفقدون الطريق وينظرون الى الحياةنتيجة قلقهم من ثقب صغير •

ج ـ أدب الخلاص :

يعتبر أدب الخلاص نتجة ضمنية وفعلية لادب الثورة والقلق • وما هو هذا الخلاص ؟ وما هي نتائج الثورة والانفعالات الوجدانية والقلق ؟ انها نتائج فوضوية يتخبط فيها الانسان ولا يعرف طريقه• ان امثال دوستويفسكي وتولستوي حاولا ان يخلصا ابطال روياتهم من هوة التفسخ الوجداني والاضطراب العقلي والنفسي • لقد بحثا في الخطيئة والشر والقلق وحاولا على غرار هايدجر وكيركغارد ان يجدا حقيقة الخلاص • واختلفت وسائل الخلاص لا بل الخلاص ذاته، عند كل من ادباء الخلاص • فمنهم من وجد الخلاص في المحبة والتسامح • الولادة الجديدة ، ومنهم من وجدها في العودة الى الدين المسيحي ، مثل نبقولاس بارديايف وبرنانوس ومنهم من حاول ان يجده في المجتمع المثالي الذي يبنى على قاعدة مثلى من عدالة حقة • وهكذا تختلف ردود الفعل ، فيتحمل مفهوم الخلاص قيمة مادية وروحية وعلى كل حال ، لقد عمل ادباء الخلاص ان ينقذوا الانسان والمجتمع من كل شر يحيق به •

٢ ـ الادب الوجودي :

كانت الوجودية تعني قبل عام ١٩٤٠ كل تفكير فهمي ينطلق من تحليل الوجود بحسب ما يتصوره الوجدان ، لكنها تحولت بعد هذا العام الى حركة ادبية تتصور الوجود والاحساس به كعبث فاجع ، حتى اصبحت تدعو للتشاؤم والالحاد • فالوجودية تتضمن مفهوما روحيا وآخر ماديا • ويتزعم المفهوم الروحي القديس اوغسطينوس وكيركغارد وباسكال وغبريال مارسيل ونيقولا برديائف ويتزعم المفهوم المادي مفكرون امثال سارتر وسيمون دوبوفو وكامو مارلو • ولا شك ان اصحاب المذهب الوجودي المادي هم رجال قلقون عاصروا الازمات الشديدة •

والوجودية فلسفة تنطلق عن الذات وكل شيء ينعكس في الذات ومنها • فهي فردية في جذورها ولا اجتماعية • وقد تبناها الادباء الروحانيون فقالوا ان الانسان هو محور الكون وتوصلوا الى ميتافيزقية الانسان ويأتي على رأس هؤلاء نيقولاس برديائف في كتابه « مصير الانسان » • اما مارلو وسارتر وكامو فيتخذون مصادر تأملهم من عزلة الانسان امام عالم قاسٍ ، باطل • ويظنون ان جميع الاديان قد ماتت وان العالم اضاع المطلق • ومع ذلك يُبقي مارلو على شيء ان علاقة الانسان مع المقدس ؛ بالرغم انه لايجرؤ على النظر الى شبح الموت المحتوم الفاجع في اعماق ضميره ••• انه الخوف •

فالوجودية وهي أدب القرن العشرين وفلسفته ، تعبر تعبيرا واضحا عن قلق الانسان وخوفه من مصيره الفاجع في الكون ، وهكذا لا تبغي الاصلاح بل تنظر الى المأساة كما هي دون تداركها• ويفتش الوجوديون عن الخلاص • فالروحانيون فهم وجدوه في الانسان ـ الاله اما الماديون فقد وجودوه بالعبث وفي محدودية العقل وفي صعوبة الحياة في عالم خال من الله •وهؤلاء استمرار لفلسفة نيتشه لانهم يتقبعون في ظلام اللاوعي ، وفي صراع الشعور باللاشعور •

ان اكثر ما يعذب اصحاب مبدأ الوجودية هو الوجود والحرية • وهم يتذمرون من كثرة الحريات وضياعها في آن واحد • ويختلف مفهوم الحرية عندهم بين الروحانيين والماديين •وهم بين هذين التيارين ، يعيشون في عالم القلق والعبث الذي يقودهم اخيرا الى الذاتية والفردية ، وينادون مع كيركيغارد وهايدجر « الغير هو الجحيم » • ان الوجودية المادية نظرة قاسية طغت على كثير من قيمة الانسان وعظمته •

٣ ـ أدب الحب :

الحب هو المحور الذي تدور حوله معظم الاساطير والقصص الخيالية . ان قطبي الحياة يتمثلان بالرجل والمرأة وكلاهما انسان . فالحب هو العلاقة القائمة في الانسان بين قطبيه . وقد وجد لسببين : الاول لاجل تحقيق طاقة كامنة فيه ، وهذه الطاقة الكائنة تتطلب وجودا مسبقا ، اذن هي من ضروريات الحياة لانها وجدت معها، فهي معطاة وسابقة. والثاني لاجل تحقيق استمرار البشرية ودوامها . ولا يمكن الفصل بين هذين السببين لان الاول يمثل الحب المثالي ، حب الانسان لكيانه والثاني يمثل الحب العضوي ، حب الانسان لذاته . وجدير بنا ان نلقي نظرة على الحب المثالي والعضوي .

أ ـ الحب المثالي :

ان تاريخ الادب مليء بأناشيد الحب واغاني القلب المحب ، وتضحية المحبين . ففي تاريخ أدبنا يقف قيس بن الملوح وجميل بثينة في طليعة الحب العذري . وفي تاريخ الادب الغربي يقف لامارين في كتاب « رفائل » وقصيدة البحيرة والسنديانة ، وجوته في كتابه « الام فرتر » في طليعة المحبين الذين ضحوا وتألموا . وكان الحب المثالي سببا وداعيا لتأليف مآثرهم وكتابة اشعارهم الجميلة . ولقد وجد الشعراء والادباء الالم في الحب ، الالم الذي دفعهم الى النبوغ العبقري . و لاتزال صورة دانتي وهو ينظر الى بياتريس وهي تمر أمامه على نهر فلورنسا من اجمل وانبل مايعبر عنه القلب من العواطف الانسانية . لقد الهمت بياتريس دانتي الى كتابة « الكوميديا الآلهية » .

ب ـ الحب العضوي :

هذا ماكان يقيه الحب اولا . الحب المثالي الاسطوري والفروسي واما الادب الحديث فقد عنى بالحب العضوي الذي تطغي عليه مفاهيم الجنس وقوى الانسان اللاواعية . وقل ان نجد شعراء القرن العشرين وادباهم يقدسون العلائق الروحية التي تربط بين الرجل والمرأة . لقد اصبحت الفضيلة في نظرهم من مخلفات القرون البائدة فهناك اندريه جيد في كتابه « اللااخلاقي » وهناك د٠ه٠ لورانس في كتبه « السيدة شاترلي » و « بنون ومحبون » ، هذه الكتب تضج بالقلق الجنسي الذي يضيع السبيل ولا يجد مخرجا او منفذا الا في الجنس . فيتحول الجنس عندئذ من طاقة او قوة نفسانية تعمل في الخلق الى قوة عمياء لا تجدي . والى جانب كل هذا يطغي علم البيولوجيا و الفيزيولوجيا على الانسان فتصبح مفاهيمه مادية الى حد بعيد . هذا بالاضافة ايضا الى الادب الرخيص الذي يجعل من الانفعالات والقوى اللاواعية والعواطف المتحولة الى مرض نفسي ، والتوتر الجسدي والحيرة النفسية وحب المغامرة امثلة على الادب الناجح وقد تبوأت فرانسواز ساغان مركزا أدبيا في عالم الادب الرخيص ، وفي عالمنا العربي تعمل بعض الكاتبات الناشئات على تقليدها ، مما يدعو للاسف .

٤ ـ الادب الاجتماعي :

الادب الاجتماعي هو بحث في المشاكل الاجتماعية وتعقيداتها . والاديب انسان صاحب شعور نبيل وقلب ينبض بالحركة والحياة . فهو يرى مآسي المجتمع ونقائصه ويحاول ان يجد مخرجا لها او ان ينقذها . ويتسم هذا النوع من الادب بالجدية والرصانة والقاء الاضواء على مايشكل امره وما يتعقد بسبب النوازع والمصالح الاجتماعية المتضاربة .

توجد في المجتمع فئات مظلومة . هي فئات الاقليات العرقية او الدينية . وتشعر هذه الفئات بالالم وتقاسي الحرمان . ان ريتشار درايت ، الكاتب

والاديب الامريكي الزنجي ، يدافع عن حقوق الزنوج في كتبه العديدة ونخص منها كتابه «الصبي الاسود» . هذا النوع من الادب يمثل رد الفعل عند الفئات التي تشعر بالظلم والغبن وفداحة المصير .

وهناك نوع آخر من الادب الاجتماعي وهو ذاك الذي يدعو الى الاستقلال والقضاء على كل نزعة استعمارية ، ان ادباء آسيا وافريقيا يتميزون بهذا الادب خاصة وانهم يعملون لاجل تحرير بلادهم بأقلامهم وأفكارهم . ويأتي على رأس هؤلاء الكاتب آتس باثون الذي الف كتابه « ابك يا بلدي الحبيبة» . ولقد تضمن هذا الكتاب وصفا صحيحا وواضحا ومؤلما لواقع شعب اتحاد جنوبي افريقيا ، هذه الدولة التي تحكمها اقلية اوروبية وتستثمرها رؤوس الاموال الاجنبية . يصور الكاتب كيف ان المواطن يعيش بخوف وجزع مشديدين ، وفي حالة فقر هائلة . ان وصف الكاتب للحالة الاخلاقية المنحطة التي تدنى اليها شعب اتحاد جنوبي افريقيا مؤلم الى حد بعيد .

وهناك الادب الاجتماعي الذي يدعوا الى اصلاح الاحوال الاجتماعية في المجتمعات العالمية المختلفة . ونطالب الكتاب الاجتماعيون بالمزيد من العدالة والمساواة والحرية ، كما يطالبون باحترام الانسان وتقديره .

٥ ـ الادب الانساني :

يعتبر الادب الانساني نداء عاما وشاملا لاضفاء الصفة الانسانية السامية المجردة والمطلقة للفكر . فهي تبحث في الانسان وحقيقته . بغض النظر عن كونه فردا اجتماعيا ، ويأتي ألكسيس كاريل وجاك مريتان وبيمبي وكلوديل على رأس الادباء الانسانيين في القرن العشرين . ويتبلور هذا الادب في التيارات الحديثة التي تنادي بالسلم بين الشعوب وتحقيق مستوى اعلى للانسان ، واحترام القيمة الانسانية ، وتحقيق عدالة أكبر واشمل والقيام ضد الطغيان والارهاب . ويأتي برتراندراسل في طليعة ادباءهذا النوع . ونحن نستطيع ان نقرأ هذا النداء ايضافي كتب ارنست همنغواي . لقد تصدى هذا الكاتب للحروب ومآسيها وصور الآلام التي تنتج عنها . كما نجد في كتابات سارتر وعند باربوس في كتابه « النار » الذي يصور به مأساة الحرب ، ودوهاميل في كتابه « حياة الشهداء » وهو صرخة رثاء صادرة عن قلب مزقته آلام الحرب فجاءت بمثابة احتجاج الفكر على وضع الانسان .

يتمثل الادب الانساني في الوجدان المتطور نحو وجود اكثر انسانية ، ونحو عالم يحقق القيم والفضيلة، وفي مجتمع فاضل ينظر الى الفرد نظرة الاكبار والحق . وينادي الادباء الانسانيون بالقضاء على كل نوع من الاستغلال والاستثمار ، استغلال انسان لانسان او شعب لشعب كماينادي بايجاد انواع الحكم الصالحة . ويكلل نداءه برفض الحتمية التاريخية .

فنستنتج أن الادب الحديث يمتاز بصفة القلق والتمرد أي اللاعقلانية . وهذه الصفات دلائل على البحث والغوص الى اعماق الوجدان لمعرفة الحقيقة . ان هذا الادب يتفش عن نفسه المفقودة في حتمية التاريخ القاسية ويحاول ان يحررها من قيود اللاواعي التي تثير الغرائز المستيقظة في عالم الحرب والازمات الاجتماعية .



يا قلبي

شعر: عدنان قيطاز

يا نجيّ الهموم أين لياليك وأين الكؤوس والندمان
أين ألوانك العذارى المدلاّت وأين الشذا وأين البيان
أين زهو المنى وأين الصبابات وأين السرور والألحان
كيف ماتَ الجمال وانطفأ السحر وغاص السنا وجفّ الحنان
كيف حالَ النعيمُ في ملعب الحب وضاع الشباب والريعان
اللبانات لم تعد مورقاتٍ والسجايا مشى عليها الزمان
والأفانين من شموخٍ وعزٍ لعبت في رحابها الحدثان
يا نجيّ الهموم ما لك أسوان وأنت المخضوضل الفينان
فيم هذا الوجوم ، والصمت قتّال» ، وفيم الغموض والكتمان
لك هذا الثرى ، وهذي السماوات ، وهذي النجوم والأكوان
لك هذا الوجود والسرّ فيه كل سرٍّ لدى الوجود مصان
ولك الغاليات من متع الدنيا فلا قسوة ولا حرمان
يا نجيّ الهموم غنِّ لياليك وزدنا فكلنا آذان
غنّ للحب .. للحياة وللمجد فللسحر حولنا ألوان
وازرع المصبيات تزهرْ حناناً كل أرضٍ للمصبيات مكان
أقتلُ الهمِّ مايمرُّ على القلب وللهم شدة» شدة وليان
ربّ همٍ يحيا الشجاع بريّاه وهمٍّ يموت فيه الجبان
يا نجيّ الهموم أيّ أصيلٍ لم تُخضَّبْ بشمسه الاحزان
قد كساه الغروبُ صفرة ورسٍ رغم ما قيل : إنه عقيان
يا شقيّ المنى أقلّ وأجملْ لك شأن وللبرية شان
واحبس الدمع في مآقيك إجلالاً لصوتٍ تشتاقه الأوطان
طال ليل الضياع في سكرة النجوى وحار الدليل والركبان
إن تعد يا غرير يا قلبيَ الخفاق عاد الشباب والعنفوان

عدنان قيطاز

كلمات الى انسانة لن يسمعها

تونس

* خالد عبد الله

عبدتك مع الحرف لم افرق بينكما . أأنت خالق حرفي أم حرفي ابدعك ...

تمر السنون ، وتتهاوى الايام ، ويتغير رقم سنواتي ، الرقم فقط . وتبقى أنت وحرفي كل ما املك من دنياي .. احضنه فتنساب نظراتك الراعشة على الورقة البيضاء ، تطرز جوانبها . تملأ قلبها بأغلى حرف وأدفأ لحن ، اتركها واعود اليك ، اتأملك عايدة فقرقعي الكلمات حولي ويضج كوني بنشيد أثر نشيد فأضحك واياها الى قلبي الخافق واغرق في ضوء نجم ، واسبح في شعاع قمر وانام في مضن موجه توشوشني ، تداعبي تنقلني لالف عالم مسحور ...

الليل والقمر وسهل فسيح يحنو على سيارة صغيرة بيضاء تطير بي راعشة ، راقصة ، وانا معها اشده مع الغروب يضحك الافق اللاهب بأشعة خجلى تتبعثر هنا وهناك وتقترب مني فنلثم معا انفاس الحبيب السكرى .. انفاسك انت ايها الحبيب .. واصحو من سكري على سؤال غريب ... من انا ؟ واين اسير ؟ ولماذا وجدت ؟

فاتتني واجيب .. انا حرف كان لم يعرفه قلم انسان قبلي ، ومن يخطه انسان بعدي .. انا حب مبدع سيبقى على مر الاجيال برودها كل عاشف .. انا انسانة .. انسانة عابدة .. ومعبودي الى جانبي ، أرى الدنيا من انفراج شفتيه وشعاع عينيه المتموج .. نظرته العابرة تلفني بضباب رائع . رائع . بحنانه وغرابته ، فأسجد في محراب حبه ساعات وساعات ..

حياتي ، سعادتي ، شقائي بين شفتيه ، حرف منه يشدد عليه قليلا ، يبتره . يقذفني بعيدا الى دنيا الشقاء والالم ، دنيا كل مافيها هلامي سديمي اللون .. اشارة بسيطة لمن صغير ترقص به حنجرته الدافئة عن كلمة هامسة ، تغرقني في النعيم وتجعلني اعيش مع الحلم واصبح تلك النجمة الصغيرة الراكعة ابدا عند اقدام حبيبها « القمر » تلمع من نوره ترنوا اليه ، تعبده ، ترعاه ، تهدهده ، انها اسيرة حبها تراه ينعم وينساب في زواياه هنا وهناك والعابدة الصغيرة مشدودة الى زاوية لا تتركها ، مطمئنة ، سيعود اليها ومن يتركها ، فلن يجد قلبا دافئا غير قلبها ، من يجد من يعطيه بسخاء ويحنو عليه ويصفح عن ذنوبه .. نعم انا تلك النجمة . ابقى في مكاني ، قلبي يحرس عابدي ونظراتي تضمه ، وانفاسي تهدهده ، يدي تداعب شعره وهو مستلق على المقعد المريح في البلدة البعبدة فيغفو كملاك ..

انه حرفي ووجودي .. اين انا ؟ ماذا اسمع ، ما أرى ؟ عابدي والقمر يجثو عند اقدامه يتمسح باعتاب غرفته ، يناديه .. قلبي العابد النداء واطل من النافذة ..

صمت البحر وتطلع اليه مشوقا مشدوها ، انه يقترب بنعومة، حاملا اياب الحب والابداع . وهمسات الدفء والحنان ، ينقلها اليه مع القمر المرتخي بامعنان الموج .. الموجة تدنو خجلى ، تشرأب الى النافذة ، تتحدى الصخر ، تثور على الرمل ، تهمس ، تصيح ،

تريد ان تسكر من رائحة حبيبي ، ان تنتشي من خمره ، ان تعربد بين يديه .. ولكن مهلا ابتها الموجة .. وصبرا يا قمر ورويدك يا بحر اني هنا .. انه حبي انا .. همساته الدافئة لاستعاري وانفاسه الثائرة لتأجحي ، ونظراته لتفرقني وخمره ليسكرني .. انه لي .. انه معبودي .. انه الهي ، انا التي قتلت كل الآلهة .. انه ايماني انا الكافرة التي ماعرفت الايمان عمري .. من اجله اعيش ، وبه احيا ، وبسببه خلقت واستمر بالمياه .. لا من استمر بالوجود بعيدة عنه ..

انه طفلي وصبيي ينظر ناري ، يسمع فانتشي ، يبسم فأسعد ، يقطب فأشقى ، انا بعض منه . انا ظل ظله ، انا ترصيع اسمه .. انا لولاه ماعرف حرفي الخلود بل ما عرفت الحرف عمري ..

ستمر السنون وتتهاوى الايام ويتغير رقم سنواتي ، وتبقى انت حبيب حبي وامل ايامي .. سأبدع من اجلك ما بقي حرف لم يكتب بعد .. وتبقى انت نشيد انشادي ومبدع الحاني ..

مابي سكرانة الاذنة نشوانة الحرف .. اسكر الاذن .. نعم اذني انا سكرى ، الرجل فيك يوشوشني يلمس به يناديني ، اذني كانت مهدا لحبك تمعنه تلفه تؤججه تنقله الى دنيا الفن والعطاء ..

حادت الارض ، اختفت الالوان ، تلاشت الاصوات ، هرب الوجود وتجمد الكون ..

لم اعد احتمل وحبيب قلبي ونداء روحي وعربدة كياني وتأجج حرفي وبياض ورقتي ..

لم اعد احتمل اريدك مع الحرف ياحبي الوحيد .. لا استطيع البعد عنكما .. لن احتمل فرقتكما ، ابعدا فأنهي اسطورة وجودي واصلب رقم سنواتي ..! .

اصلبه على حرف لم يكتب بعد وحبيب فضل البعد .

خالدة عبد الله



* محمد بن علي السنوسي

لعينيـك في قلبي رموز وأسرار ... ودنيا من الأهـواء تجنى وتشتار

يُرنحني منها صفاءٌ مشعشع ... كما أنعكست فوق البحيرة أنوار

ويسحرني منها حياءٌ مهذب ... كما أنكسرت من مقلة الشمس أزهار

ويأسرني منها لقاءٌ محبب ... كقطر الندى يلقاهُ في الروض نُوار

إذا عانقتني رقّةٌ من جفونها ... ودغدغني منها إبتسام وإسفار

تطلعتُ مشبوب الجوانح والجوى ... ورفرف من شوقي جناح ومنقار

وحومتُ كالطير الذي شفه الصدى وبي ولهٌ يجتاحني منه إعصار

فررت فرار الحلم من عين نائم ... صحا فاذا الرؤيا قفار وآثار

فتونك يدنيني اليك فأنتشي ... وصونك يقصيني فأصحو وأحتار

فيا أنتِ يا أنتِ البخيلة بالهوى ... على كبد كادت من الحب تنهار

لرؤياك في قلبي نعيم وفي دمي ... جحيم وفي عينيّ غيم وأمطار

رضيت بما يرضيك قسراً وليس لي ... خيار ولو خيرتني كيف اختار

تحيرت في أمري وأمرك واستوى ... لدي الدجى والنور والماء والنار

جازان ـ السعودية

محمد بن علي السنوسي

الشعر بين العقل والعاطفة

نبيه شعار

كما هو غير ممكن تصور التقاء الليل والنهار في وقت واحد ، كذلك ليس بامكاننا القول بالتقاء العقل والعاطفة في عمل واحد . وان كان يلتقي الضوء بالعتمة ذات لحظة ، فانما هي لحظة انعدام ، انعدم فيها الضوء وباشرت العتمة ، أو انعدمت العتمة وباشر الضوء . أي أنها لحظة عديمة مزدوجة . وكما انه لا يمكن للعدمية هذه أن تستمر دون ان يعقبها ليل او نهار ، كذلك الامر في الشعر . فحين ينعدم العقل تتحرك العاطفة لتوجد الشعر . وحين تنعدم العاطفة ، ويدخل العقل حيز الكلمة ، لا يمكن للشعر أن يجيء .. إذ أن لكل من العقل والعاطفة طاقة خاصة ، لها كل مقومات الامكانية التي تستحوذ على كل حواس الانسان ، وتمضي به في طريق تنهجه له ، دون أن يملك قدرة — ولو بسيطة — على السير في درب آخر.

فعندما يكون العقل رائد عمل ما ، فانه يستحوذ كل امكانات الانسان وحواسه ، ليجيء العمل كما صوره — العقل — تماما . وكذلك العاطفة .. بحيث ينتصب كل منهما ، ديكتاتورا رهيبا يجثم على صدر الطاقة الانسانية ، فيوجهها حسب هواه ، دون أن يرتضي — كل منهما — أي نقد أو تحريف ، فيما اختط أو رسم .

وكما أنه لايمكن تطابق الليل والنهار في آن واحد، متنافران كل التنافر ، فانه لا يتطابق العقل والعاطفة في آن واحد . أي في عمل واحد ، أدبيا كان أو غير أدبي .

وبما ان الشعر عالم خاص ، واسع الحدود ، غير بيّن الجدران ، لا يمكن رسمه أو تصوره ، يرقى فوق كل الاعمال اليومية التي يعمل العقل فيها .. وبالاستناد الى أن العقل آلة من نوع معين — ان جاز التشبيه — لا تستطيع العمل في اختصاص محدد ... وجب على العمل الشعري أن يخرج من دائرة اختصاصها ، لأن له — كما قدمنا — طبيعة خاصة به ، بعيدة كل البعد ، عما تنتجه الآلة العقلية .

ولما كان الانسان لا يملك غير آلتين يمكن لهما صنع العمل الفكري ، وجب على العاطفة وهي الآلة الأخرى — أن تتدخل لتصنع الشعر .

من هنا ، كان القول بأن الشعر عالم عاطفي تولده عاطفة فردة ليدخل عالم عواطف الآخرين . في نأيٍ عن العقل بعيد ، بحيث انه لا يجيء إلا في لحظة انسلاخ كلي عن كل عقل أو تعقل ، في شكل كلمات تنهمر شلالا دفّاقاً ، قد لا يستطيع القلم ، احياناً ، إدراك سرعته أو استيعابها .

لا . ليس الشعر عملاً عقلانياً . بل هو عمل من أعمال العاطفة . وليس العقل ، في حالته الاعتيادية ، هو الذي يوقظ نوم العاطفة !.. فمن اذاً يقرع الباب على سبات العاطفة ؟؟.. ذلك الطارق المبارك ، هو « ذروة العمل العقلي » !.

ولكن ما الذي يعنيه تعبير « ذروة العمل العقلي » ؟

ذروة العمل العقلي ، هي اللحظة الرفيعة التي يبلغ فيها العقل مرتبة من التوتر عالية جداً تشل فيها كل

حركة أو قدرة له . بحيث يصل التفكير في مسألة ما ، حداً لايمكن للعقل ادراكه أو الاحاطة به أو التعبير عنه ، عن طريق القدرة العقلية . كل ذلك دون قصد من الفنان .

ولكن ... متى يحدث الانسلاخ عن العقل ؟ وأين ينتهي ؟.

لقد سمى البعض تلك اللحظة بـ « لحظة اللاوعي » ، وسماها الآخرون بـ « ذروة العمل العقلي » ..

والواقع ، أن تسميتها ، أو تسمية الانسلاخ ، بفترة اللاوعي تسمية غير صادقة . لأن معنى اللاوعي ، هو الانسلاخ التام الكامل ، عن كل ما في العالم الخارجي المحيط بالانسان ، وعن العالم الداخلي القائم في ذات الانسان .. لحظة اللاوعي تعني الموت الذي هو حالة انعدام صرف ، لا يمكن لها أن تعطي أكُلاً بالمرة .

وبالتالي ، فانه من الممكن قبول الرأي القائل بأن الشعر عمل من أعمال نوبات لا وعي تصيب الانسان الشاعر . لأنه يبعدُ عن الحقيقة جداً تصمّد عطاء تنتجه العدمية . عدمية الرؤية والحس والشعور ، بل والحياة أيضاً .. طالما أن الشعر حياة وشعور وحس ورؤية .. أي أنه عمل واعٍ ، ولو الى حد ما !..

وبما أن الشعر عمل واع ، وأن العقل رائد الوعي كله .. ربما قال قائل بأن الشعر عمل عقلي .

عند هذا ، تبدأ لحظة العدمية ، التي تحدثنا عنها في أول البحث ، فيمضي العقل بالشاعر عن عالم الواقع ومحتوياته وأموره ، مرتقياً به عالماً غير منظور ولا مدرك ، عالما يعيش في داخل الفنان وأعماق نفسه .

هنا فقط تبدأ لحظة الشعر الذي هو أعلى مراتب الفنون الأدبية ، اذ يروح الشاعر ، عندما تتلبسه تلك الحالة ، في غيبوبة عن كل ما يحيط به ، وينغمس في عالم الرؤى والاخيلة التي تتراقص وترتعش أمام ناظريه ، ولا يبقى للعمل أي دور ، بحيث تنوب عنه العاطفة في رسم خط سير الشاعر ، وفي وجهةٍ لنهاية تختارها هي . فيغدو ذلك العالم الفريد ، غير المنظور ، والذي لا يدركه العقل .. عالماً جلياً ، واضحا ، تدركه العاطفة المتأججة التي أيقظها تردد العقل وتوتره المتزايد المتألق .

وكم من شاعر ذهب ضحية اصطدام في منتصف شارع مزدحم بالسيارات في لحظة الغيبوبة تلك التي غط فيها عقله المدرك عندما ابتلعه التفكير في المسألة التي طرحت نفسها حين بلغ العقل ذروة العقلانية — دونما استدراج لها — حتى غدا الشاعر أسيراً في قبضتها النورانية ، لايملك غير الاستسلام لقدرتها . فلا هو يعرف ما الذي يفعله ، ولا هو يعي انزلاق الكلمات من بين افترار شفتيه ، وليس يُحسُّ أصابعه المترأعشات تخط ما يراه في تلك الفترة الساطعة . وبالتالي ، فهو لا يعرف متى تنتهي القصيدة ، فيخرج من هذه « الأزمة » .

وكما هو أدخل عالم العاطفة في ترفق وحنان ، دونما ارادة منه ولا رغبة ، يعود يُسل عن ذلك العالم الفضفاض الرؤى ، المليء ترانيم وألوان واضواء ، استحالت شعرا صافي الصدق ، لا يملك حين عودة العقل الى عمله ، أن يُغير حرفا من الحروف ، ولا أن يقدم أو يؤخر بيتا من بيوت القصيدة التي جاءت تعبر عن تجربة عاناها بكل وجوده وكيانه ، واعتملت في أعماق ذاته ، حتى بلغ عقله — على غير ارادة منه — حداً من التفكير بها ، جعلته يرتفع ويرتفع حتى بلغ ذروة عمله ..

كل هذا ، في القصيدة التي تحضر الشاعر هكذا ، طفرة واحدة ، دونما سعي منه وراء كتابة قصيدة ما . وأما افتعال الموضوع الشعري فسوف نترك الحديث عنه الى مقال آخر في شهر قادم .

حلب — نبيه شعار

الجغرافية هي الدواء الوحيد

* للكاتب الايطالي : لويجي براندلو
* تعريب : انور كوزال

البوصلة !! الدفة !!؟ .. عندما يراد الابحار .. تستخدمان لاتباع طريق معينة للوصول الى ميناء دون الآخر . وفيما سوى ذلك يجب ان تبرهن عن حاجتنا اليها .

ورب معترض يحتدم غيظا فيصرخ .

ـ ماذا تقول ؟!! والاعمال ؟؟ اتترك دون عناية ؟ دون ادارة موجهة ؟؟ والعائلة ؟؟ وتربية الاطفال ؟؟ واحترام الشرائع والقوانين ؟؟ وانجاز الواجبات الشخصية ؟؟ .

ـ رحمة بي قف . فقد اكون ممن لا يعنون باعمالهم .. وعائلتي .. ارجو ان تصدق ان امرأتي تكرهني لا اكثر ولا اقل مما تكره انت امرأتك . واولادي .. اتريدني الا انشئهم مثلما تنشىء انت اولادك ؟! ثق انني افوقك في هذا المضمار . وبطريقة تفضل ما وصلت اليه بحكمتك ورجاحة عقلك . وانا اطيع قوانين بلادي وانجز جميع ما يترتب علي من واجبات .

فقط انا اخضع هذه التمرينات الى بعض المرونة العقلية وافيد من بعض الدروس العلمية الايجابية التي تعلمتها في صغري وحداثتي كما تعلمتها انت مع فارق بسيط هو عدم قناعتك بفائدتها وجهلك بكيفية استثمارها . والاسف في هذا داع من دواعي حسن صحتك .

والحقيقة تقال بان استعمال المتناقضات فيما تعلمناه ليس بالامر السهل . اليك مثلا حركة الارض التي قد تكون عذرا لرجل ثمل . اما نحن فلا نشعر باهتزاز ما الا عند حدوث بعض الزلازل . واذا ما عرفنا صغر ارضنا بت لا استطيع تصور جبالها العالية الشامخة كتجعدات في قشرة برتقال . يا اله السماء . انني اتساءل لما درسنا بهذا المقدار في صغرنا طالما يردد علينا باستمرار علماء الفلك ان ارضنا تشغل خيرا عظيم الصغر في هذا الفضاء اللامتناهي ؟؟!!

نعم لقد عرفت الجواب ان اولئك الفلاسفة بسويدائهم المائلة دائما الى الحزن يميلون الى الاعتقاد بان الارض جد صغيرة وان احاطتنا بعظم هذا الصغر لدليل بين على عظم وكبر نفوسنا .

من قال هذا ؟ نعم انه الفيلسوف باسكال .

ومع ذلك يجب ان نفكر بان لا وجود لعظمة الانسان الا بادراكه انه لامتناهي الصغر حيال عظمة الارض واتساعها ومجمل القول انه ليس بالعظيم الا اذا شعر انه ذرة صغيرة . وانه ليس بالصغير الا عندما يشعر انه كبير عظيم .

ومن جديد اعود للتساؤل عن اية تعزية او تسلية تحملها الينا هذه العظمة اذا لم يكن من نتائجها الا البرهان على انه مقضي علينا في هذه الحياة ان نرى كبير الاشياء صغيرا وصغيرها كبيرا ؟؟!! وأي امل او

فائدة لنا ـ ان دهمنا مصاب ـ ورفعنا اعيننا الى السماء وفكرنا ان في تلك النجوم من لايفترض وجود هذه الارض وان عند نهاية النهاية لن يكون كل شيء الا عدما .؟؟.

ورب معترض يقول .

ـ حسنا واذا مافقدت احد اطفالك أي شعور يخالج فؤادك ؟؟.

فأجيب على هـذا بان الحالة تكون قاسيـة . وستكون اشد قسوة عندما يبدأ المرء بالتخلص من حزنه وألمه . ويشعر برغبة الاستبعاد وعدم المخالطة حتى العزوف عن رؤية الآخرين .

أرأيت الى تلك الورود المتفتحة في اوائل آذار ؟؟ قد تعزف عن رؤيتها . واذا ماشعرت ببليـل اجواء الربيع يتفاقم حزنك ويشتد اساك لمجرد تفكيرك ان ذلك الراحل العزيز لن يستطيع مقاسمتك شعورالغبطة والبهجة .

واخيرا اعود للتساؤل ايضـا . عن اية تعزيـة تفتشون في موت احد الاطفال ؟ او ليس الافضل ان لايكون شيء من هذا ؟؟! وهذا الفناء الكائن فيطبيعة الوجود الا يختص بالتعاسة اكثر مما يختص بعذوبة الحياة التي توفرها لنا الارض ؟ والفناء المحتوم يبدو جليا اذا ما استطعنا التفكير عندما ننظر الى النجوم والكواكب .

انا لا اقول ان هذا الامر سهل ميسور . لان علم الفلك معقد لا في تعلمه فقط بل وفي تطبيقه ايضا .

ومع ذلك اقول انكم عديمو التشابـه والتناسق بمحاولتكم استيحاء ارضنا هذه فكرة جديرة باحترامنا ولتبدو لنا انها ليست بهذا المقدار صغيرة اذا ماقيست بالتأثر والشغف المحتومين في داخلنا وانها تقدم لنـا المشاهد البديعة ومتنوع المناخ والعادات . ومن ثم تعودون للدخول في قوقعتكم . وبينما تنفلت الحياة هاربة تغرقون انفسكم بالتبصر فيقضية تقض مضجعكم او بشقاء يدور بكم .

قد تجيبونني انه اذا ما اكتنفت المرء بلبلة واستولى عليه شغف عارم او تأثر جارف استحال عليه الانفلات من آلامه او سعادته والتخلص الى عودة يتخيل فيها حياة مختلفة .

مهلا . لا اقول ان باستطاعتكم التحول باجسادكم او بأفكاركم . ولا بتخيلكم حياة تفضل هذه الحياة التي تسبب لكم الشقاء لان هذا النوع من التحول تمارسونه جماعيا بتنهداتكم . « آه ليت ذلك كان هكذا وآه لو كان هذا بديلا لذاك او آه لو استطعت ان اكون في ذلك المكان » وهذا الاسف وذاك التمني لا فائدة منهما ترجى . ولو تبدلت حياتنا واختلفت عما هي عليه الآن لما عرفنا اية عواطف واية امان وآمال جديدة تبعث فينا ، اتلك التي نحسد عليهـا الآخرين ونسعى اليها ام هذه التي لنا والتي يغبطنا عليها الآخرون لان المرء يسعى للحصول على ما ليس هو له واذا مانال مبتغاه لن يظل هو هو نفسه .

ان الاستفادة من شذرات العلم ، ايها الاصدقاء الاعزاء ، ان لم تكن بالامر السهل فهي ليست بالامر المستحيل . ونتيجة ماتوصلت اليه بتجاربي تؤيـد قولي .

في احدى الليالي العديدة المحزنة حيث كان يجب علي ان اعنى بأمي المسكينة المريضة التي تعاني آلام النزع طيلة اشهر واشهر حتى تحولت الى كائن حي ميت ران على الغرفة صمت مفاجيء عنـدما سكن تنفسها واذ انحنيت على الفراش لاتبين امرهـا او بالحري لا تأكد من وفاتها لاح لي وجهي في المرآة كما لو انه اراد ان اراه فتبينت فيه علائم الشوق الى التحرر من تقيده الى جانب المريضة التي خلصت من صدرها انفاس النزع بغتة . واوحى لي الاشمئزاز

من نفسي فدفع بي الى البكاء المرير بكـاء شعوري بأنني قد اقترفت جريمة نكراء . بكاء الطفل الذي كنته الى جانبها . وتجدد في نفسي الاحساس بحاجتي القصوى الى حنانها بسبب قسوة البرد والمشقة التي اكابدها في سهري الطويل المضني . وتمثلت لي الليالي الطويلة المضنية التي قضتها الى جانب سريري شابا مريضا كنت او طفلا .

تمثل لي ما في الغرفة من اثاث حيا يسعى فارتميت الى جانب مكتب اصغر بناتي حيث كانت في اوائل ذلك المساء تعد دروسها في غرفة جدتها . وعندما فطنت الى نفسي كانت الشمس تغمر الكون باشعتها . ووجدتني لا اشعر بتعب او برد ولا بفرح او يأس وانا ممسك بين يدي بكتاب الجغرافيا وعيناي عالقتان بالصفحة ٧٥ الملوث طرفها بالحبر وأثر من السكر عالق بحرف الميم من كلمة « جمايكا » .

لقد كنت طيلة هذا الوقت في جزيرة جمايكا حيث الجبال الزرقاء ترتفع بين اودية اكتست خضراء الربيع الدائم وانسابت المياه صافية رقراقة في جنباتها . او تدفقت بقوة الشلالات من قمم الربوات والهضبات . ورأيت بعين الخيال تحت المياه جدران مرفأ «رويال» المتهدم بفعل زلزال عنيف . كما رأيت الرجال والنساء والاطفال بمثل ما هم عليه هنالك من انهماك باعمالهم اليومية وقد حملوا السلال ينقلون بها محاصيل البن الى اكوام عرضت لاشعة الشمس كي تجف وتنشف . ولقد عشت هذه الرؤى كما لو انها حقيقة مجردة ملموسة .

وقد استخلصت من ذلك الانتقال غير المتوقع اكسيرا عجيبا ودواء ناجعا هو ان تحول حياة ما لا يتم الا بالايمان المطلق بحقيقة الحياة الاخرى التي تحن وتهفو اليها نفوسنا وبهذا فقط سننأى رويدا رويدا عن نسق الحياة الذي نمله ونسأمه دون ان نحس بفصم الارتباط وبعد التغاير وبذا يبدو الامر كما لو انه طبيعي ولسنا بمستطيعين الحيلولة دون وجوده .

وتسهيلا لحصر الفكر بناحية معينة فقد وقفت على كل من امرأتي وبناتي الاربعة ناحية من العالم افكر فيها منذ اللحظة التي تبدأ فيها احداهن بمضايقتي او مشاكستي .

فمثلا اعطيت امرأتي اسم « لابوني » فاذا ماطلبت الي مالا استطيعه ، انتقل بتفكيري واتمثل نفسي في بلاد « اللابون » واجيبها بجد ورصانة وكان شيئا من حديثها لم يكن .

ــ ايسي ــ لوليه ــ سكيلفتا .

ــ ماذا تقول ؟!

ــ لاشيء ياعزيزي . هذه هي انهار اللابوني .

ــ وما شأن انهار اللابوني في حديثنا .؟؟

ــ لاشأن لها ياعزيزتي . ولكنها موجودة وانت وانا لا نستطيع ان نوقف مياه تلك الانهار عن التدفق الى خليج البوسنة . ولو انك ترين كما أرى ايتهـا العزيزة حزن ذلك الصفصـاف . لا ريب ان ليس للصفصاف شأن بحديثنا ايضا غير انه موجود وهو جد حزين حول تلك البحيرة المتجمدة . اتعلمين بان اللابونيين يدعون ايضا الساموس وهم اقزام قذرون. حسبك ان تلمي بهذه المعلومات ولو ان لادخل لهـا بشؤوننا . ولكن لابد من الاضافة اليها بأنني متعلق بك كل التعلق ومع ذلك اقول انهم أي الساموس لايعلقون كبير اهمية على الامانة الزوجية ولذا يقدمون زوجاتهم وبناتهم لاول وافد غريب .

ــ يا للشيطان . بماذا تثرثر ؟! انك لمجنون . انني اسألك ...

ــ أجل أجل ياعزيزتي انك تسألينني وانا لا ارفض. ولكن اللابوني . يالها من بلاد قاسية محزنة .

الخواطر الثائرة

أحمد علي حسن

هدأت خواطِرهُ الحوالِمُ، فاهدأي — وتَنَسَّمي ظِلَّ الهوى ، وتفيَّأي
ونضى على عينيك كلَّ مُخبَّإٍ — ممّا يضنُّ به ، وغير مُخبَّإِ
وهناك مُتَّهمان جدَّ كلاهما — في أن يكونَ لديك غير مُبَرَّإِ
الهاتِفان بمقلتَيْك تكفّلا — بمهَّدِ حلو الجنى ... ومهيَّإِ
ووراء نفسك ألمعيَّةُ ضارب — بالوسوسات ، وبالحِجى المتفيِّإِ
كنزٌ يلوِّنُه ويصقُلُ وجْهَهُ — بالعالَمِ الثّاني خيالُ مُنبَّإِ

أأريق معلوم الحياةِ بأحْرُفِ — مجهولةٍ ، نعم الهدى لم تقرإِ
وأظلُّ أظمأُ للسَّراب ، وفي يدي — ماء الحياةِ ، كأنني لم أظمإِ
عجباً يهددني بغير حقيقتي — وهمٌ أباح تمزُّقي وتهرُّأي
لا تسألي ماضي الشَّباب ، فإنَّني — ضيَّعتُ أشرِعتي هناك ومرفأي
ستذوب حالية الصِّبى ، فتزوَّدي — ما شئتِ من عطرٍ لديه مُعبَّإِ
أتراه يمرأُ بالكهولةِ مطعمٌ — إن كان في شرخ الصِّبى لم يمرُأِ
ويُشكُّ بالحسن الجميل ، وكلُّنا — بيميننا منه يردُّ لأسوإِ

أهوى الحياة بمقلتَيْك ، لأنَّها — كُلٌّ على الصَّبوات غير مجزَّإِ
وإذا مررتِ على الخلودِ بغيرها — فتضاحكي ممّا يلفق واهزأي
إنَّ الخرافة أن نعيش بعالَمٍ — عن عالم النُّورِ الشَّفيف ، مُحلَّإِ
قد زيَّنوا غير الحياةِ بمثلِها — في الوهمِ فاعتزلي خيالك واربأي
لك في الصَّميم من الهوى مُتبوَّأٌ — يا هذه .. فتملكي وتبوَّأي
إنَّ الخلود على شبابك ، فانعمي — والطَّيِّباتُ وراء حبُّكِ ، فاهنأي
وإذا تغيَّرَ ذو هوًى في مَبْدأٍ — إنَّ الحياة وحبَّها من مبدأي

الفنون التطبيقية واتحاد الفنانين البلغار

★ غازي الخالدي

وصلت صوفيا .. عاصمة بلغاريا .. وفي ذهني افكار غير واضحة عن الفن والفنانين البلغار .. وعن طبيعة الحياة والبيئة هناك ..

المدينة جميلة ، ابرز مافيها ان الازهار والورود.. والنباتات الخضراء .. والحدائق .. موزعة في كل مكان تذهب اليه في المدينـة .. حتى في المحـلات التجارية .. ترى اجمل انواع النباتات ذوات الاوراق الخضراء العريضة التي تختزن الماء في انسجتها ، وتطل من نوافذ العمارات على الشارع زهور ملونة كأنما تؤكد ان هذه النافذة .. نافذة لبيت سعيد ..

والحدائق .. لكل حي حديقتـه الخاصـة .. وازهاره الخاصة .. وفي اكثر من مكان في المدينـة تشعر ان الحـدائق هي صلة الوصل بين الشوارع الرئيسية والساحات العامة ..

والمسألة كما يبدو ليست مسألة زرع ازهارجميلة وفقط، انما تتعدى ذلك الى انتقاءالالوان والاشكال.. تتناسب مع طبيعة المكان ، فمثلا الشوارع الكبيرة الرئيسية ملآى بالقصارى الكبيرة موزعة على جانبي الطريق ذات الوان بنفسجية وزرقاء فقط ، بينما تجد في الحدائق الصغيرة امام بعض المباني الكبيرة الوانا كثيرة ومتعددة الاشكال والدرجات مطبقة اللون الى جانب الآخر على شكل سلم متناسق جميل جدا .. تستطيع ان تراه من كل زاوية يجمع على الاقل ستة الوان ويمثل ستة انواع من الازهار والرياحين ..

وكثيرا ما يستخدمون هذه الازهار والحـدائق بالكتابة ، والاشارة الى اسم المكان بحيث توزع بعض انواع من الازهار على شكل حرف او كلمة ترمز الى اسم المكان او البناء .. واجمل ما رأيت من هـذا القبيل على بعد قليل من صوفيا خارطة كاملة لبلغاريا على شكل حديقة .. فيها المدن الرئيسية، والمواصلات والانهار ، والجبال والوديان ، بطول يتجاوز الثلاثين مترا .. والمدن كلها على شكل مصغر « ماكيت » من بعض نماذج البناء .. والعمارة للمدينة . حيث تختلف طرز البناء وطبيعة الحياة من مدينة الى اخرى، ولكل مدينة لها طابعها الخاص وحياتها الخاصة .. من جو شاعري وحياة تتناسب مع جو الشعر والفن .. وخاصة مدينة ترنوفا على بعد ثلاثماية كيلو مترا من صوفيا العاصمة حيث تجد هناك اكبر عدد من الفنانين والاجانب يتجولون حاملين الكاميرا وادوات الرسم ويتنقلون بين اجمل بيئة في بلغاريا كلها .

ومما لاشك فيه ان بلادا تعيش حياة الحدائق ، والازهـار والرياحين .. هي بـلاد الفن والسحر والجمال .. والفن في بلغاريا موزع كما وزعت تلك الازهار والحدائق تماما .. فلا تكاد تمر من حديقة او منتزه الا وترى التماثيل المختلفة من البرونز او الحجر ، او الرخام .. منها عن رجال السياسة ، ومنها عن رجال الفكر والفن ، ومنها عن الجمال المطلق .. ، امرأة عارية، ريفية جميلة في حركة رشيقة وهي تشرب،

طفل يداعب سمكة ، او عن الشهداء في المعارك الوطنية ..

وبدأ السؤال الهام يدور في نفسي .. ما هو اسلوب الفن الذي يمارسه الفنانون البلغار! افكارهم، انتاجهم الخاص ، معارضهم ، مراسمهم .. كيف يعيشون ..؟

وطبعا الفن هو الذي يهمني في كل هذه المرحلة.. خاصة وان الدعوة كانت من اجل الفن .. ، الفن التشكيلي والتطبيقي في مهرجان الفنون الذي يقيمه اتحاد الفنانين البلغار في اكبر صالات المدينة .

وطلبت التعرف الى الفنانين في نفس مقر حياتهم، في مراسمهم .. داخل الاتيليه ..

وزرت المثال تيودوروف ، وفنان السيراميك زدرافكومانولوف ، والفنانة روجا ستايكوف ، والفنانة ساشكا خريستوفا ، وفنان الصب بالبرونز بيتر كامينوف ، وفنان النحت على الخشب اسين فاسيليف ، والمثال ايفان ماندوف ، واستاذ الرسم بيتر تبروف ، وفنان الرسم التوضيحي لقصص الاطفال نيفا توسوزوفا ، وفنانة الديكور المسرحي آنا توسوزوفا . ومن المصورين الفنان يوني ليفييف في مدينة بلوفدين ، وزلاتيو بوييجيف وهو في حدود الثمانين ، يرسم باليد اليسرى بعد ان شلت يمناه ، ثم الفنان نيكولاكوجافاروف رئيس قسم التصوير الزيتي في اكاديمية الفنون في مدينة ترنوفا . وفنانة الكنفا والتطريز اليدوي الشعبي البلغاري القديم السيدة تشوكانوفا وهي تناهز الثمانين او اكثر ..

كل هؤلاء .. وغيرهم زرتهم في مقر اعمالهم .. وفي بيوتهم .. وجلست اليهم واتحدث معهم طويلا عن الفن .. وعن الانتاج ، والاسلوب ، وما وراء الاشكال من افكار وفلسفة واراء خاصة .. واطلعت على دراساتهم ومعظم اعمالهم .. منها محفوظ في المتاحف ومنها لايزال في بيوتهم ومراسمهم .. او في المعرض الفني الكبير الذي اقيم في صوفيا .. ابتداء من ٢/٩/١٩٦٤ .

وبما ان المجال لايتسع الآن لدراسة تفصيلية عن كل فنان من هؤلاء على حدة .. خاصة وان هناك بعض الاسماء الهامة التي عرفت بين مشاهير فناني العالم من بلغاريا .. وقد طواهم الثرى ، وآثارهم باقية تتحدث عنهم في المتاحف الكبرى في اكثر من مكان في العالم . هذه الاسماء الكبيرة يجب الوقوف عندها بعض الوقت مثل الفنان المثال الكبير ايفان لازاروف (١٨٨٩ ــ ١٩٥٦) والمصور ياروسلافڤيش (١٨٦٠ ــ ١٩١٥) .

وسنكتفي الآن بعملية ايجاد قاسم مشترك أعظم بين اعمال الفنانين في السيراميك والحفر على الخشب، والطباعة على الاقمشة . ونحاول تحديد الملامح الاساسية للفن البلغاري من خلال اعمال الفنانين البلغار في اكبر معرض يقام في صوفيا منذ سنوات عديدة .. وهو معرض الفنون التطبيقية .. اعده واشترك به جميع الفنانين البلغار الذين ينضمون تحت لواء واحد هو اتحاد الفنانين يجمعهم وينظم نشاطهم ومعارضهم ومحاضراتهم ورحلاتهم ..

ثم بعد ذلك سأنتقل الى الحديث قليلا عن فكرة الاتحاد البلغاري للفنانين ، ومدى اهمية الاتحادودوره في دفع حركة الفنون وتطويرها الى الامام . وماهي الاعمال التي قام بها الاتحاد من اجل الفن والفنانين.. لعل ذلك قد يفيدنا في تجربتنا الجديدة في لم شمل الفنانين السوريين وتجميعهم على شكل اتحاد .. وتوحيد الطاقات الفنية الضائعة في البلاد .

اولا : معرض الفنون التطبيقية :

اقيم المعرض في قلب العاصمة صوفيا ، في ثلاث قاعات في عدة امكنة من المدينة ، اكبر القاعات في مبنى

في حديقة وراء الاوبرا يحوي اهم الفنون التطبيقية من زجاج ونحاس وجلد وسيراميك وموزاييك وزجاج معشق وخشب ، وقوالب ، وفخار ، وموبيليا ، ••الخ والقاعد ذات ردهتين تشبه من حيث الاتساع ثلاث اضعاف قاعة الثقافة والفن في مدينة معرض دمشق الدولي ، على ارتفاع شاهق •

وكان الترتيب وعرض المنتوجات في غاية البساطة، والذوق الرفيع •• ويتوسط المعرض بانو زخرفي كبير قائم من السقف حتى الارض، يرمز الى الفنان التطبيقي في عدة مجالاته • ملون بلونين فقط، الابيض والاجري المحروق وباسلوب النحت البارز •

والقاعة الثانية في مكان آخر من المدينة خاصة بفن الاعلان والغلاف وتصميم علب الادوية • والثالثة في مكان ثالث أيضا وخاصة بالنسيج والملبوسات المصنوعة باليد من قبل الفنانين •

وكنظرة عامة نستطيع ان نحدد بعض الميزات العامة لجميع هذه الفنون التطبيقية من خلال القاعات الثلاث على اختلاف الانتاج الذي عرض فيها بما يلي:

١ ــ من المعروف عن فنون البلاد الاشتراكية انها لاتخرج في معظم أعمالها عن الواقعية ، والمحافظة على النسب الطبيعية من تشريح الانسان أو الحيوان•• دون اللجوء الى المبالغات أو تحطيم النسب وتغيير العلاقات التشكيلية في التكوينات المختلفة •

اما في هذا المعرض فقد لاحظت فيه لاول مرة ظهور تطور في الاشكال وباسلوب تحليلي جديد فيه كثير من الحرية والتصرف بالنسب التشريحية التي تميل الى التلخيص والتغاضي عن التفاصيل الدقيقة في الطبيعة ، وهذا بلا شك خطوة هامة نحو فن فردي له طابع العالمية • وهذا التجديد والتطور مقصور على فن السيراميك (أي الخزف) •

٢ ــ بالنسبة للسيراميل أيضا ، وبعض معروضات الحديد والخشب ، والموزاييك (الفسيفساء)، لاحظت ان التصميم الذي يقدمه الفنان لهذه الخامات المتنوعة، يشكله ويعده ليكون نافعا في الحياة اليومية ، وليدخل ميدان الصناعة والبناء ، مثلا السيراميك : قدم الفنان زدرافكو مانولوف مدفأة حائطية فنية من قطع صغيرة من البراميك ، وكذلك اعمال الخشب حيث صممت على شكل مفروشات فنية فريدة من نوعها ، وكذلك للبناء •• ولادخالها الى الصناعة حيث يعمل منها آلاف النسخ وتباع كمواد بنائية بأسعار رخيصة وبنفس الوقت تحمل طابعا فنيا فريدا من نوعه •

٣ ــ يلاحظ في جميع المعروضات تعدد الملمس خاصة اعمال الزجاج والخزف والفخار والخشب والجلد • فمرة خشن ومرة محبب ، ومرة لامع ، ومرة غائر ، ومرة بارز ، بحيث ترى الجمال في هذا التغير المقصود • وفي هذا براعة بلاشك في الخبرة التكنيكية والصناعية والفنية •

٤ ــ ان جميع الوحدات الزخرفية المستعملة في جميع المعروضات وخاصة الطباعة على الاقمشة والسيراميك والخشب والنحاس والجلد والزجاج والنسيج اليدوي البدائي ، أصل هذه الوحدات الزخرفية مستوى من القصص الشعبية البلغارية ، ومن تاريخ بلغاريا القديم ، ومن تراثهم الفني الذي يعتزون به كل الاعتزاز ، ومن الاشياء الطريفة عندهم وجود بطل قديم يشبه في تاريخنا القديم شخصية (عنتر وعبله) و (الزير المهلهل) و (سيف بن ذي يزن)• بالسيف التقليدي المشطور ، والحصان الابيض ، والشمس •• والقمر •• والعروس •• والعريس• الخ

٥ ــ ان البساطة موجودة في كل شيء في المعرض، رغم وجود مجهود فني واضح في كل قطعة معروضة، تجد الى جانب الجهد المبذول بساطة متناهية في

الزخرفة ، في الصناعة ، في العرض ، وخاصة في التكوينات الفنية مثل الرسوم الفنية على السجاد أو على الجلد أو على البانو الحائطي من السيراميك ويرمز الى السمك ، أو الى حياة الريف •

٦ ـ الاختصار ، وقوة التعبير ، وابداع الفكرة الجديدة ، في فن الاعلان والغلاف من ابرز مالفت نظري ، حيث كانت مجموعة الاعلانات التي عرضت في مصاف فن الاعلان الفرنسي أو الاميركي من المهارة وجدة الفكرة •• واستعمال الملصقات من ورق جرائد قديمة الى قصاصات من صور فوتوغرافية الى ورق ملون الى غير ذلك ، ومن الافكار الطريفة في الاعلان: صورة كأس للخمرة داخلها قضبان وعينان حزينتان•• وكلمة صغيرة في أسفل الاعلان : انظر الى أين نودي!! واعلان آخر طريف صورة رجل نائم عى مدفع في لحظة الانطلاق •• وكتب على المدفع : نوم هادىء وسعيد ! وهي دعاية لنوع من الادوية المساعدة على النوم ••

٧ ـ ان اهم ظاهرة في هذا المعرض هو تعدد الخامات وكثرتها ، وكيفية استغلالها استغلالا تاما بحيث نستطيع ان نؤكد ان الطبيعة أكبر ثروة للانسان عندما يعرف كيف يستغل وجوده فيها •• ويتابع كل خاماتها ويستعملها في المكان والزمان المناسبين •

ومن الخامات التي استعملت : قصاصات الاقمشة القديمة وعمل الفنان منها سجادة مزخرفة بصور شعبية رائعة الجمال •• ثم من بقايا الخشب ، والنحاس والجلد والحديد ، أواني عملية للبيب وللرسم وللمكتب • ومن الطباعة اليدوية على الاقشة الرخيصة ترى الاشاربات والمفروشات والستائر والملابس •

٨ ـ تطعيم الخامات المختلفة مع بعضها بحيث تعطي جمالا خاصا ، وتفيد أكثر من الناحية الاستعمالية، فمثلا كوب من الخشب يده من النحاس ، علبة من النحاس مزخرفة بقطعة من الجلد ، السيراميك مع الزجاج ، الزجاج مع الخشب ، الخشب مع القماش ••

ان هذا التطعيم من أجل ما رأيت في المعرض •

٩ ـ وبشكل عام أستطيع أن أقول رغم ان المعروضات تكاد تكون صناعية عملية صالحة للاستعمال اليومي فان فيها بل في كل قطعة من القطع المعروضة، طابع انساني فردي يظهر من خلاله شخصية الفنان الخاصة • فترى في معروضات الزجاج كيف يتغير اسلوب الفنانين من لون الزجاج أو الاشكال التي يختارها •• أو التكوينات التي يقدمها • فهذه اللمسة الانسانية وراء الفنون التطبيقية هي في الواقع أبرز صفة لنجاح تلك الفنون ، وكلما اندثر اسلوب الفنان الفرد وراء تلك الفنون كلما اقتربت هذه الفنون نحو الآلية ونحو الصناعة العامة •

ثانيا : اتحاد الفنانين :

ان وراء هذا النجاح الكبير الذي أحرزه المعرض، ووراء كل هذا النشاط الفني في جميع أنحاء بلغاريا•• هيئة اسمها : اتحاد الفنانين البلغار •• وهذا الاتحاد هو اروع ما في بلغاريا بالنسبة للفن والفنانين حيث يجمعهم هذا الاتحاد ، ويعبر عنهم ، ويحميهم ويدافع عن قضاياهم ويؤمن لهم جميع طلباتهم •• ويرتزقون منه أيضا •

شكل الاتحاد : مؤلف من جميع الفنانين العاملين بجد وباستمرار وبحق وصدق وايمان بالفن التشكيلي من رسم ونحت والفن التطبيقي كما رأينا في المعرض السابق • له مجلس ادارة ورئيس وسكرتير يتم انتخابهم سنويا •

اعمال الاتحاد : يملك أو يستأجر الاتحاد بيوتا جميلة ورائعة في كل مدينة من مدن بلغاريا وخاصة المدن ذات الطابع السياحي الفني الخاص الذي يعجب الفنانين • يكون هذا البيت مضافة لجميع الفنانين البلغار والاجانب يسكنون فيه كما يريدون، يرسمون•• كل شيء •• ثم يعودون الى البيت الجميل المقسم الى اتيليهات وكل فنان له غرفته •

ثم يصدر الاتحاد مجلة شهرية ذات طباعة أنيقة وملونة وورق صقيل يشترك في تحريرها جميع الفنانين بروح رياضية واخوية وتعاون لاحدود له أبدا ، ونباع في الاسواق وتوزع الى العالم أجمع . وتحكي عن الفن بكل فروعه واختصاصاته ، وتناقش أهم المشاكل الفنية ، مع طبع اللوحات بالالوان . وهي تشبه الكتاب الى حد كبير . والمردود المالي الذي يأتي من المبيعات يعود الى صنوق الاتحاد حيث يمول الصندوق مشاريع الاتحاد الكثيرة .

وللاتحاد محل تجاري في أجمل شوارع المدينة يبيع جميع منتجات الاتحاد ، من تصميم وتنفيذ الفنانين من فنون تشكيلية وتطبيقية . ولهذا المحل التجاري فروع في بعض المدن الهامة في بلغاريا .. ومردود الارباح بالنسبة للقطع المباعة توزع بين الفنان المصمم وصندوق الاتحاد .

والاتحاد أيضا يستورد باسمه كهيئة رسمية : الالوان والخامات الاولى والمواد الاولية اللازمة للفنانين يستوردها من جميع بلاد العالم ويبيعها بسعر زهيد الى أعضاء الاتحاد والى الفنانين فقط ومردود الارباح لصندوق الاتحاد أيضا .

والاتحاد يفتح صدره لجميع الضيوف من الفنانين، والبيوت التي يستأجرها جاهزة لمثل هذه المناسبات . ويقدم الاتحاد هدايا تذكارية الى الفنانين الاجانب من تصميم الفنانين البلغار .

وبالتالي ينشر الاتحاد من وقت لآخر كتب فنية خاصة عن الفن البلغاري توزع .تباع في جميع المكتبات وتغذي أيضا صندوق الاتحاد .

وجميع المعارض والمهرجانات والندوات والمحاضرات يقوم بها الاتحاد وينظمها بشكل ناجح الى ابعد حد، والاتحاد أيضا مسؤول عن الفنانين الذين يعجزون ، والذين يحتاجون الى معونة مادية أو أدبية أو فنية ويقدم لهم كل المساعدات اللازمة لذلك .

وللاتحاد قاعة خاصة للمعارض الفردية الى جانب المحل التجاري الذي يبيع فيه الانتاج الفني.. وهذه القاعة تعرض باستمرار أعمال الفنانين البلغار والاجانب بشكل أنيق جدا ، ومشرف .

والاتحاد كما يبدو من هذا الكلام انه تجمع جماهيري على مستوى عال ، من الفنانين ذوي الانتاج المستمر .. وهذا التجمع على هذا المستوى بالذات له أهمية كبيرة في الدولة ، ويحسب له حساب في المهرجانات الدولية الكبيرة وفي المعارض العالمية بحيث يكون للاتحاد الرأي الاول في التوجيه نحو ايجاد صورة مثالية عن الفن البلغاري والفنانين البلغار امام العالم اجمع .

ورائد هذا الاتحاد كما لاحظت التعاون والاحترام المتبادل ، والمحبة ، والصدق ، والانتاج المستمر . وكم أتمنى لو ان مشروع اتحادنا في سوريا يحمل هذا الطابع الانساني والتعاوني والفني المنتج .

الضــــائعون

حول قصيدة الشاعر سليمان العيسى

لعل القصيدة التي كتبها الشاعر سليمان العيسى في صديقه الفنان أدهم اسمـاعيل تعتبر – بحق – أصدق ماجاشت به عاطفة . وتدفق به احساس ،وتطر به حرف ، والتهبت به كلمة .
ولعلها ابلغ تعبير عن واقع كل فنـان وأديب .

لوحوش الارض أوجار

ولطيور السماء أوكار

اما ابن الانسان فليس له مكان يسند رأسه .

لزرّاع الحقل فرح الغلال ، وشبع البيادر .

وللمروج سكرة الشمس ، وطراوة النسمات .

ولآذار اكمامه وبراعمه .

ولنيسان وشيه وارابيجه .

وللشتاء – حتى الشتاء – ندفه الابيض ، وهدهدة رعوده .

أما الشاعر ، أما الفنـان فليس لهما الا حسرة الخيبة ، ومرارة الحرمان ، والموت البطيء ، وما أمرّ الفناء البطيء !!

★ ★ ★

الساكبون عيونهم ألقاً على الصفحات .

والعاصرون قلوبهم سلافة في النفوس .

والمتلاشون أنفاساً كالشموع .

تتنعّم بالذوبان .

وتلتذ بالاحتراق .

لانها تضيء سبيل العابرين .

وتكنس اكوام الظلمة عن الدروب .

هؤلاء ليس لهم الا اجترار الآلام ، وعتمة الأقبية الرطبة العفنة .

★ ★ ★

الناظمون الحياة قصيدة .

والمغدقون الخلود نغماً .

والمبدعون الجمال ريشة وازميلاً .

يموتون مصلوبين على خشبة الاهمال ، والنسيان ظماءً متضورين .

★ ★ ★

حملة رسالة السماء الى الأرض .

أبناء الآلهة .

عمَلة حقل الحب والخير والجمال والحق .

هؤلاء الذين لهم كل امكانات الآلهـة من خلق وابداع ، يتوارون عرياً ، ويتضاغون جوعاً .

وحقهم .. حقهم ان يجلسوا في الاعالي ، ناعمين بالطيبات ، ترفع اليهم القرابين ، وتراق على اقدامهم

العطور ، ويغلّف قصورهم ضباب المباخر ، ويواكب انّاوالغدائر ساهران، وفوقنا وتر الهي الرنين يرجع

★ ★ ★

يموت الشاعر فيبدعه الفنان صورة يجثو الخلود على ضفاف خطوطها والوانها يستجديها خلوداً • أو يحيله نغماً مارداً يعصف باعصاب الكون •

ويموت الفنان فيعيده الشاعر قصيدة صدً اءة على الدهر، وحروفاً مشعة تقف امام الشمس بتحدٍ وعناده

وفي هذا العطاء المتبادل كل العزاء ، وكل الادلال على معطيات الحياة •

مات أدهم اسماعيل في مطلع نشيده الناغم ، وعطائه البكر ، تختلج على شفتيه شتى الكلمات الراعفة •

مات وكرمه مليء بالعناقيد ، وجراره طافحة بالخمر ، وبيادره مكتظة بالغلال • وريشته حبلى بالألوان والابداع •

مات مبدع « الفارس العربي » ، المسمّر سنان رمحه بالنجوم ، المتناثر مِزعاً على جنازة الكبرياء • وجاء صفيه ونجيه الشاعر سليمان العيسى يذبح حنجرته في مأتمه ، لتندّ عنها أفجع وأوجع صرخة شاعر •

مات فارس اللون المخضب بالشذا •• بالألق ،•• بقوس قزح ، •• بكل أفراح الفن والجمال ،

مات الفاتل من غدائر اللّهب جديلة هاجعة على اسرار « خولة » •

ويسهر الشاعر مع الغدائر منصتا لرجيع وتر الهي الرنين •

الجلال مسيرتهم، ويظل الربيع المخضوضل مرمى أعينهم •

ان أغلى ما يضم بيت الشاعر قصيدة صامتة على الجدار ساجعة بسحر صمتها • ابدعتها ريشة الفنان الراحل ، يضيع الشاعر على ضفاف خطوطها والوانها •

بيتي •• و اغلى ما يضم قصيدة
فوق الجدار بسحر صمتك تسجع

وماذا بقي للشاعر من صديقه الفنان وبينهما عزلة الأبد ؟؟

لقد بقي له الشيىء الكثير !! اليست مخيلات الشعراء أقدر من سواها على حفظ الصور واستدعائها بعد غيبوبة المادة •

هذه هي اصداء الطفولة وعفويتها وبراءتها وعبثها ، وهذه مواكب السافحين عيونهم وقلوبهم على الدروب • واطياف الراحلين مع الاصيل أنغاماً على شفة العذاب •

والقبر !! ••

القبر المظلم ، هل يخيف من سلخ عمره في « قبر الحياة » :

ما ضرنا قبر سلخنا عمرنا
فيه ، وقبر في دجاه نُودعُ

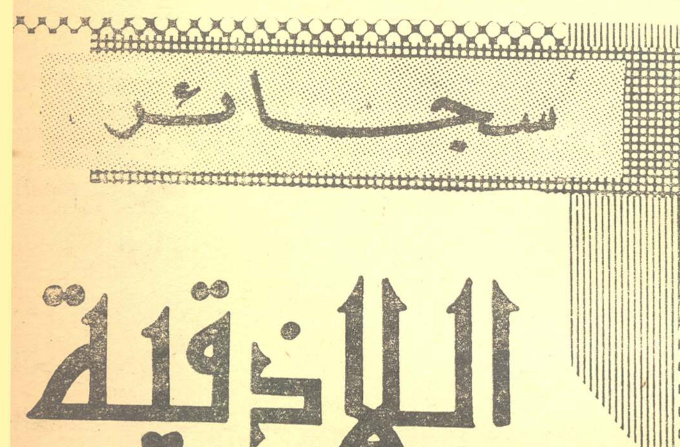
انايديهما تهب الكنوز حباً بالهبة والعطاء، وبيتهما اوسع من الوجود ، تتسكع عروش الزائلين ببابه مستجدية مستعطية •

أيماننا تهب الكنوز •• وبيتنا
هذا الوجود •• لنحن منه أوسع
سلها عروش الزائلين •• الم تزل
عبر القرون ببابنا تتسكع ؟
تهب النعيم •• وما أبرك واهباً
يعطي لينكره العطاء •• ويوسع

وأرضهما ؟

أرضهما التي زرعاها بالنجوم ماذا انبتت لهما ؟؟ لقد اعطتها شوكاً وعُلّيقاً وحسكاً ، وأمطرتهما زيتا وكبريتاً ، وجاماً حاراً ، وانزلت على رأسيهما

وتر تقطع في الضباب •• وربما
جثت العصور لديه وهو مقطعُ
حامد حسن





« الضربات العشر » •

قبوان !! كانا كل ما سمحت بـــه
أرض زرعناهـا النجـوم ، ونزرع

أجل قبوان مظلمان رطبان للريشة المبدعة المترفعة ، وللحن الناغم المضيء •

ان هواء أرضهما وترابها كافران •

أورشليم •• ، يا اورشليم يا قاتلة الانبياء •

تنوس المصابيح وتصرع ، وتنطفيء شعل الالوهة في كهوفك ويتأله الملق الغبي لديك •

يتـأله الملـق الغبيّ •• وتنطفي
شعل الالوهة في الكهوف •• وتصرع

ولكن •• هل تصل الاوحال الى ضمير الشموس؟ وهل يعلق الرياء بدموع التوبة ؟

مات ادهم اسماعيل وابقى لنا « الفارس العربي »، « وغسق الألوهة » و « خولة » ذات الغدائر • ابقى لنا ما هو أخلد على الدهر من الدهر ، بدعاً من الفن شاهدةً على امكانات أمة العرب على الخلق والابداع والتفوق •

مات الفنان فأحاله الشاعر في اسماعنا قصيدة ، وفي اجفاننا حلم ربيع وشباب ، وفي عيوننا رهرهة انوار ، وفي شفاهنا فوح صلاة •

ضاع ادهم اسماعيل كغيره من الفنانين في أمتنا ، لم يلتفت اليهم عنق ، ولم تومىء اصبع •

وهذا هو نصيب صانعي الكلمة المعبرة المسؤولة• والحرف الاخضر المشع ، كلهم طريدو لعنة ، ولعبة أقدار ،

ما ضعت وحدك في بلادي ، كلنا
لحن بزوبعـة الصغار مضيـع

ولكن •• هل مات من خلده الفن •• صورة ، والالهام •• قصيدة ؟

جولة مع المجلات الأدبية العربية

بقلم رابح لطفي جمعة

العلوم – بيروت :

في زاوية « شؤون الفكر في شهر » تحدث الاستاذ رفيق خوري في العدد الاخير من مجلة العلوم عن أدب الجنس وما اذا كان يحق للدولة ان تصادره وانطلق في الحديث عن هذا الموضوع من خلال مصادرة كتاب « سفينة حنان الى القمر » واستدعاء ليلى بعلبكي الى شعبة الاخلاق . واستعرض الاستاذ خوري بعض النماذج التي صدرت عن ادباء عالميين عنوا بفضح مشاكل الجنس بمؤلفاتهم المختلفة وضرب أمثلة كثيرة على ذلك . واستنكر أخيرا هذا العمل العجيب في تاريخ الفكر بلبنان .

وفي مكان آخر من الزاوية نقل عن مجلة « الأدب الصيني » حديثا للقصاص الصيني « صن لي » الذي لم يكتب حرفا خلال السنوات الست الاخيرة .

ويكفي أن نعرف ان قصة صن لي « نهر اللوتس » التي نشرت عام ١٩٤٥ والتي تصور الصراع ضد اليابانيين قد قوبلت بالترحاب في المناطق المحررة وفي المناطق الجنوبية التي كانت ما تزال تحت حكم الكيومنتانغ .

صن لي لايهتم بضخامة الموضوع ، ولايجلجل بالالفاظ الكبيرة بل ينفذ الى أعماق الاشياء ويعرف دائما كيف يفتح الطريق الى البساطة .

انه يكتب عن الحرب عبر النساء القرويات البسيطات ، وعبر أفكارهن البسيطة ، وتصرفاتهن .

وقد استطاع صن لي أن يكتشف السبب الحقيقي الذي من أجله كانت المرأة الصينية تشترك في الحرب . أو تودع زوجها الذاهب الى المعركة بالابتساء والهدوء . لم تكن الحرب بالنسبة للمرأة الصينية هي مجرد حرب تحرير فقط بل كانت تحمل معاني خاصة . فهي بالاضافة الى انها ستحرر الفلاح من النظام الاقطاعي وتعطيه أرضه ، فانها ستحرر المرأة أيضا من القيود الاجتماعية ، وتجعلها مساوية للرجل .

والنماذج النسائية التي صورها صن لي في قصصه، « هسنغ لان » ، « المسيرة » ، « لوحة الحجر »، « المرشد » ، « الشرف » ، « شينع الصغير وشنغ الصغير » وأخيرا روايته « السنوات العاصفة » تعتبر من أكمل النماذج النسائية ليس في الادب الصيني فقط ، بل في الادب العالمي . إن صن لي لم ينظر الى المرأة من وجهة نظر محض جنسية ، أو محض عدائية ، بل حاول أن يفهمها كأم وكزوجة وكعاشقة ومريضة وفلاحة وعرف كيف يبني شخصيتها من مجموعة تصرفات صغيرة لاعبر كلمات مجردة كما يفعل البعض .

وقد كان للحرب تأثير كبير على أدب صن لي وعلى طريقته في التعبير . ويقول صن لي : في عام ١٩٣٩ بدأت أكتب القصائد والقصص والروايات والاستكشات كنت أحاول ان أبحث عن اسلوب خاص . ولكن ظروف الحرب نفسها هي التي أوجدت اسلوبي .

فقد كان الحبر قليلا ، وكان من الصعب الحصول عليه ، كما كانت الصحف صغيرة ، ومضطرة للاهتمام

بأشياء أخرى غير الأدب وكنا نحن مشغولين بالخوف والعمل في الجبهة ، وذلك يعني ان هناك اناسا قليلين لديهم الوقت للقراءة الطويلة ولذلك حاولت ان أكتب باختصار قدر الامكان ومع الايام أصبحت الكتابة المختصرة عادة بالنسبة لي بل اسلوبا خاصا .

وقد اكتشفت خلال خبرتي ان على الكاتب دائما أن يركز على الجزء الرئيسي من الموضوع لا على الهوامش والاشياء الجانبية .

وحين يستطيع الكاتب ان يعبر ببساطة وصراحة عن الموضوع ولو كان هذا الموضوع قضية عادية أو صغيرة ، فانه يحلق الى ذروة الادب الانساني العالمي .

وحيث سئل صن لي عن الادباء الذين تأثر بهم قال :

ــ من الطبيعي ان يعجب الكاتب بأدباء آخرين وان يتأثر بهم في اسلوبه . وقد أعجبت ببوشكين ، ميريميه ، زغلول ، غوركي .

ان المناخ الرومانتيكي والنفحة الشاعرية في أقاصيصهم وبحثهم الدائم عن الجمال ، كل ذلك فتح في نفسي نوافس جديدة على الحياة والادب . وكذلك تأثرت أشد التأثر بالتنوع الذكي الجمالي في قصص تشيخوف واعجبت بطريقته في البحث عن البساطة ، والصدق ، والاخلاص ، وكرهه لكل ما هو قبيح .. الا ان الكاتب الذي دفع حياتي باسلوبه هو الكاتب الصيني لوهش .

ولقد حفرت قصص لوهش ومقالاته مجاري عميقة في نفسي أن احب الجمال والحياة وان أغوص في الاعماق الحقيقية لشخصياتي لا ان أكتب عن سطحهم الظاهر ، واعتقد انه ليس هناك الا كتاب قلائل يستطيعون رصد مثل هذه الاحاسيس العميقة . الصغيرة ، الذكية ، لدى أبطالهم .

وصن لي يعتمد الى جانب هذا على الادب الصيني

القديم ، حتى انه يحفظ مقاطع كبيرة من رواية تراثية مشهورة في القرن الثامن عشر لتسوهو تشن وقد ظهر تأثيرها واضحا على روايته « حلم الغرفة الحمراء » .

وفي معظم أقاصيصه يحاول صن لي أن يصور كيف يتغير الانسان حينما يتعرض لظروف جديدة ، وكيف تدمر حياته أحيانا دون ان يريد ذلك . وابرز ماثل على هذا النموذج قصة « الحداد والنجار » التي يقول انه كتبها عام ١٩٥٦ بعد ان عاش فترة ستة

أشهر في قرية في منطقة بنيكو وعرف أهلها .

فالحداد العجوز فو والنجار العجوز لي . واولادهما شخصيات حقيقية عرفها في القرية ، وعرف كيف لعبت الحرب دورا كبيرا في تغيير أفكار وادوار وحياة هذه الشخصيات .

ويقول صن لي انه بعد فترة الصمت الطويلة التي عاشها بسبب سوء صحته ، سيعود الى الريف ، ليرى أصدقاءه القدامى ، وأولادهم ، وليكتب عنهم من جديد .

العرفان ـ صيدا لبنان :

اشترك في تحرير الجزء الاول للمجلد ٥ من مجلة « العرفان » التي تصدر في صيدا بلبنان عدد كبير من ادباء العربية من هؤلاء السيدة وداد سكاكيني ، الاساتذة جورج صيدح ، مهدي جاسم ، نزار الزين أسد رستم ، الشيخ محمد جواد مغنية ، الدكتور زكي المحاسني ـ روكس العزيزي ، محسن جمال الدين ، محمد الكرمي ، جعفر الخليلي ، عبد المطلب الامين ، عبد المنعم خفاجي ، حسن الامين ، أنور الجندي ، محمد علي الزعبي ، موسى كاظم نورس ، حامد حسن ، معلي صارم ، عبد الله حشيمة .

وتحت عنوان « العرب في لبنان قبل الميلاد » كتب الدكتورأسد رستم يقول : نحن ، معشراللبنانيين، أقدم الشعوب للشعوب عشرة . وأكثرهم لهم خلطة، وأشدهم بهم خبرة . ولعل السبب في ذلك اثنان ، أولهما ان الانسان بطبيعته حيوان أليف وأننا نعيش عند ملتقى افريقية بآسية واوروبة فلا غرو والحالة هذه أن نكون مزيجا من أجناس مختلفة وان نكون قد ورثنا عن كل جنس أفضل ما عنده ، وان نظل نحمل رسالة التفاهم والمحبة والسلام . ومن يدري انه لو كنا قد انتبذنا مكانا قصياً واستأنسنا بالوحشة، وخرقنا في بيوتنا ، لخشن جانبنا ، وصلفت عشرتنا ، وثقل ظلنا .

والمبهج في تاريخنا أننا كنا ولا نزال نجيد لغة عالمية بالاضافة الى لغاتنا السامية ، من كنعانية الى آرامية ، الى عربية ، فما كادت اللغة اليونانية تصبح لغة العلم والفن والثقافة ، حتى أجادها عدد كبير من اللبنانيين فأسهموا في نشر الحضارة اليونانية وفي تقدمها وتعمقها . أو لم يتحف زينون الفيلسوف العالم برواقيته باليونانية . ثم ألم يتخذ مالك الفيلسوف العربي اسما يونانيا ـ بورفيروس ـ ويكتب باليونانية أفضل ما صنف في الافلاطونية الجديدة .

وبروبوس البيروتي أو لم يصبح أقدر من نقد النثر اللاتيني في العالم . ولن ستغرب بعد هذا أن يجيد أحدنا الافرنسية فينظم بها ما يهز الافرنسيين هزا .

ان أحدا منا لم يعد بعد في تاريخ لبنان العنصري، في تاريخ الشعوب التي استقرت في هذا البلد العزيز وأسهمت في رقيه وتفوقه واني أحاول الآن أن أستفز شبابنا الجامعي الى ولوج تاريخ لبنان من هذا الباب. من باب العناصر المختلفة التي تمازجت عبر العصور فأنجبتنا شعبا رزينا متزنا معتدلا ، غير معجب بنفسه حسن الصحبة ، طيب العشرة ، لطيف المخالفة .

اننا ساميون قبل كل شيء . مرجعنا جزيرة العرب، مفقه العصور في غرب آسية ، كنعانيون أولا ثم آراميون . ومع انه لايختلف اثنان ، فيما نعلم . في أننا عرب أيضا . فاننا كثيرا ماانتوهم أن العنصر العربي حل بيننا في أثناء الفتح الاسلامي . وهذا خطأ فاضح لا يليق بقطر تزعم النهضة العلمية الحديثة منذ انبثاقها، ولا يزال .

ان انطلاق العرب من الجزيرة العربية الى خارجها بدأ فيما يظهر في السنة ألف قبل الميلاد . فداوود الملك اضطر أن يحارب قوما من العرب عرفوا بالعياطرة عندما طمع بشرق الاردن، والاسكندر الكبير اذ تحدته صور وصمدت في وجهه واضطر أن يحاصرها حصارا طويلا . أحب في يوم من ايام الحصار ، أن يروح عن

النفس ، برحلة صيد قصيرة فقام من ضواحي صور ممتطيا جواده واتجه شرقا متسلقا جويا وتبنين ، فوجد نفسه فجأة بين قدم من العرب . هكذا يقول اريانوس أقدم من أرخ للاسكندر وأقربهم اليه زمنا ، وفي أثناء هذا الحصار أحس حاكم غزة بالخر المداهم فاستعد للقتال منتظرا حصارا طويلا فملأ عنابره بالمؤنة وصهاريجه بالماء واستقدم للدفاع عن الاسوار مئات العرب . فامتنع هؤلاء في غزة مدافعين عنها . مقاتلين بشدة وبأس ، نابغة الحرب في العصور القديمة طوال ايلول وتشرين الاول من السنة ٣٣٢ قبل الميلاد .

وحين أطل بومبايوس الفاتح الروماني في السنه ٦٥ قبل الميلاد وجد معظم الريف اللبناني عربيا .

ومن أخبار هؤلاء اللبنانين العرب قبل الميلاد أن يوليوس قيصر حذا حذو بومبايوس فأدخل العياطرة في صفوف جنوده ، فرقة كاملة ونقلهم الى تونس حين كان يحارب فيها وذكرهم في تاريخ حربه في افريقية ولا نزال نقرأ على جدران بعض الآثار الرومانية في تونس اسماء الجنود اللبنانيين العرب ، اسماء لطيفة ظريفة كعزيز وسهيم وأبجر وما شاكل ذلك . وهي عربية دون ريب .

وهكذا فان العروبة في لبنان قبل النصرانية والاسلام ولا غرو ان قال دموس شاعر الوادي قبل الحرب العالمية الاولى :

أنا كيف سرت أرى الأنام أحبتي
والقوم قومي والبلاد بلادي
بردى كدجلة والفرات محبة
والنيل كالاردن طي فؤادي

ولا عجب اذا تغنى الملاط بالاستقلال فأنشد :

ياجاعل اليراع في موضع الحسام
ينشىء الفتيان أعزة شجعان
هيا الى الامام بعهدك الجديد
وعزك الانجيل ومجدك القرآن

التعليم في المملكة العربية السعودية

ضمنا مجلس في الجرجانية ـ المصيف السوري الساحر ـ مع صديقنا الاديب المعروف الدكتورمحمد حاج حسين . وهناك بين المناظر الطبيعية الساحرة ، والانسام اللطيفة جرى الحديث حول النهضة الحديثة في المملكة العربية السعودية التي شكلت جميع مناحي الحياة ، وسألنا صديقنا الدكتور حاج حسين عن الوثبة التعليمية العمائلة التي قفزتها المملكةفحدثنا حديثا مسهبا عنها .. مما يثلج صدر كل عربي . ويسر الثقافة التي ترصد مظاهر النشاط الثقافي العربي ان تسجل بعض النقاط التي التقطتها من حديث الصديق الذي أمضى العام الدراسي الماضيأستاذا للادب العربي في كلية التربية بمكة المكرمة .

قال الدكتور : عظمة الدولة الحديثة تقاس بما تقدمه من خدمات عامة للشعب ، وعلى هذا المقياس نرى ان المملكة العربية السعودية تسحق الى الذروة في هذه الخدمات العامة الكبيرة التي توفرهاللشعب ، والنهضة التعليمية هناك ظاهرة قوية ملموسة في هذا النشاط العام الذي تناول مختلف ألوان الحياة . وهذه هي بعض مظاهر هذه الوثبة التعليميةالخيرة :

(١) ميزانية وزارة المعارف تقفز الى أرقام كبيرة تكاد تكون خيالية ، وهي في ازدياد كل عام . وبصراحة نستطيع أن نقول ان هذه الميزانية تكاد تكون ميزانية دولة صغيرة .. ولا تقتصر الدولة على هذه الميزانية الضخمة ، فهناك أعمال خاصة ، فمثلا حضرة صاحب السمو الملكي الامير فيصل المعظمينفق من ماله الخاص على عدد ضخم من المدارس تعرف بمدارس الثغر النموذجية في جدة حيث يجد الطلاب كل رعاية ، ويرشفون من مناهل العلم على ايدي مدرسين ممتازين وهذه المدارس تعد من أرقىالمدارس في العالم . والحق ان النهضة التعليمية تعود الى أيام المغفور له جلالة الملك عبد العزيز الذي وهب الكثير من القصور الملكية في جدة وغيرها لتكون مدارس لابناء الشعب .

(٢) التعليم بالمجان ، وكذلك الكتب المدرسية ، وكل ما يلزم الطلاب من ادوات مدرسية أخرى ، ووزارة المعارف تضع السيارات تحت تصرفهمتنقلهم من بيوتهم الى مدارسهم وبالعكس .. وهذهالرعاية تشمل جميع الطلاب من الابتدائي حتى التعليم الجامعي ، كما ان هذه العناية لا تقتصر على التعليم فحسب ، بل تشمل الناحية الصحية ،ففي كل مديرية معارف يوجد بناء ضخم يضم أطباء في مختلف فروع الاختصاص الطبي ، وصيادلة ، والمريض يزود بكل ما يلزمه من الادوية بالمجان أيضا وهذه الادوية مترفرة دوما بكمية كبيرة .

(٣) تشمل النهضة التعليمية جميع انحاء المملكة فأبناء البادية يرتادون المدارس شأنهم شأن أبناء المدن .. والدولة لا تألو جهدا في استقدام شتى المدرسين من مختلف البلاد العربية ، كما أنها تستعين ببعض المدرسين الاميركيين والانكليز لتعليم اللغة الانكليزية ...

(٤) وزارة المعارف تبذل جهودا جبارة لبناء المدارس على أحدث طراز في جميع انحاء المملكة

المترامية الاطراف ، وعلى رأس هذه الوزارة وزير شاب هو معالي الاستاذ حسن آل الشيـخ ويمتـاز بثقافته العميقة ، وحصائفه الممتازة ، كما أنه أديب من الطراز الاول وكتابه الجديد « دورنا في الكفاح » من أروع ما أصدرته المطابع العربية تتجلى فيه موهبة الكاتب الاجتماعي ، الذي ينشد لبلاده الحياة المثلى .. فلا عجب اذا كانت هذه الوزارة تبني مدرسة كل ثلاثة ايام .

(٥) البعثات العلمية الى مختلف أنحاء العالـم لاتنقطع ، وعدد الطلاب السعوديين الذين يتلقون التعليم الجامعي في أميركا وأوربا وغيرها يقفز الـى رقم خيالـي .. والدولـة تكفل لهم حياة كريمـة ليستطيعوا الانقطاع الى العلم .. فمثلا المعيد فـي احدى الكليات عندما يوفد لدراسة الدكتوراه يتناول ضعف راتبه .. وراتبه الف وخمسماية ريال سعودي لينقطع الى دراسته ويبرز فيها .

(٦) تشجع الدولة التعليم تشجيعا بينا مرموقـا فجميع طلاب الجامعة والكليات العالية يتناولون راتبا مقداره ثلاثماية ريال سعودي ، كما ان الدولة توفر لطلاب الجامعة السكن والطعام .. والطالب الجامعي الذي يتخرج وينهي دراسته يبدأ راتبه في الوظيفة بألف وخمسماية ريال .. وليس هنالك تمييز بين الطلاب ، فالكل سواسية ففي العام الماضي تخرج من كلية التجارة أحد أنجال صاحب السمو الملكي الامير فيصل نائب جلالة الملك ورئيس الوزراء وعين في مؤسسة النقد بالمرتبة الخامسة شأنه شأن مزلائه .

(٧) صدر قرار في العام الماضي ينص على أن جميع خريجي الجامعة ، وحملة الشهادات العليا يجب أن يدرسوا مدة أربع سنوات ، وبعدها ينتقلون الى وظائف أخرى اذا أرادوا ، وهـذا بسبب الاقبـال العظيم على العلم من جميع أبناء المملكة وسدا لهذه الحاجة الملحة الى العدد العمائل من المدرسين الذي يتزايد كل عام .

(٨) المدارس مجهزة بأحدث المختبرات العلمية ، والدولة لاتألو جميعا في توفير كل مايلزم لها لاجراء التجارب العلمية على أحدث المناهج العلمية كما ان الجيل الجديد متعطش الى العلم ، ويقبل عليه بنهم وشغف ، والاغلبية من الطلاب لا يقتصرون على دروسهم ، بل تدفعهم رغبتهم في العلم الى التزود بدرو خاصة من أساتذتهم .

هذه بعض النقاط التي وعتها الذاكرة من حديث صديقنا الدكتور محمد حاج حسين ، ولعله يكتب الينا بنفسه عن مختلف ألوان النهضة الحديثة في المملكة العربية السعودية لانه خبرها عن كثب ، ومما لا شك فيه ان هذه الوثبة العلمية الخيرة التي تسير في وعي واتزان تسر كل عربي .. فالمملكة العربية السعودية وطننا الروحي فيهـا الحرمان الشريفان ، والكعبة المقدسة التي تتجه اليها كل يوم خمس مرات .. فهي قبلتنا .. ونحن سعداء اذ نرى الشعب السعودي يرتع في هذه النهضة العلمية المثلى التي وفرتها الدولة برعاية حضرة صاحب السمو الملكي الامير فيصـل المعظم الذي رصد جميع جهوده لتكون بلاده فـي الطليعة ، ولا بد بد أن يشع منها النور .. بعد هذه الوثبة الجبارة التي شملت جميع مناحي الحياة ، فقد حدثنا الدكتور ان الشعب السعودي لا يدفع ضرائب ، كما ان الطب متوفر للجميع ، وكذلك الادوية بالمجان .. والمملكة العربية السعودية تكاد تكون الدولـة الوحيدة في العالم التي جعلت الطب بحكمتها مؤمما فعـلا .

وبعد .. ان من حق القراء علينا ان ننقل اليهم هذا الحديث .. فكل نهضة في بلد عربي هي نهضة لجميع العرب في كل مكان .. فنحن نريد أن نأخذ مكاننا تحت الشمس ، و لايتسنى لنا هذا الا اذا عملنا على بناء كل بلد عربي بناء محكما راسخ الدعائم .

« الثقافة »

النشاط الثقافي في الغرب

تنوع

اليأس هو الدين الجديد

يحتفل الكاتب الانكليزي المعاصر « نويل كوارد » في هذا العام ببلوغه الرابعة والستين من العمر . وفي الوقت نفسه ، يشهد نتاجه الكوميدي انتشارا هائلا في جميع أنحاء بريطانيا ، اذ يعرض مسرح « نات أوناك ثياتر » في مطلع هـذا الشهر ـ تشرين الاول ـ مسرحيته المسماة : « الحمى » . كما ستعرض في هذا الخريف مسرحيته : « معنويات عالية » ، ويقـدم تلفزيون « غرنادا » مجموعة من مسرحياته ، أولها : مسرحية « ضحك راهـن » . ثم تتبع بمسرحيتي : « الاعصار » و « تصميم للحياة » .

وقد كتب « كوارد » في صحيفة « الاوبزرفر » اللندنية ، تقدمة لمسرحيات ثـلاث له ، أكد فيها ان اليأس هو الدين الجديد في هذا العصر ، وانه مبثوث في الكتاب ، والأغنية ، والمسرحية ، وفيما يلي نقـدم مقال « كوارد » :

الاعصـار :

قدمت مسرحية « الاعصار » لاول مرة في عـام (١٩٢٤) على مسرح « افريمان ثياتر » بهامستيد . وقد لاقت النجاح على الفور . ذلك انها عززت مكانتي ككاتب مسرحي ، وكممثل ، الامر الذي كان يحمل لي الكثير من الحظ : بذلات جديدة ، سيارة ، قمصان حريرية ، و .. شعبية كبيرة جدا . وانهالت الصحافة علي دفعة واحدة : أخذت الصور لي ، وقـدمت في مقابلات خاصة ، في البيت ، والحديقـة ، والشارع ، وقرب البيانو ، وبصحبة أي الكهلة العزيزة .. وبدون أمي .. الخ .

ولكنني بالمقابل ، لم أذكر اطلاقا في الصحافـة لسنين عدة ، دون أن يشار الى حفلات الكوكتيـل ، والجاز ، وموجة الهستريا والانحلال التي اجتـاحت فترة مابعد الحرب .

ان هدفي من مسرحية « الاعصار » هو أن أكتب مسرحية جيدة ، وأن أفوز بدور كبير فيها لنفسي ، وأعتقد انني قد نجحت في ذلك بصرف النظر عن بعض التحفظات .

ان الليلة الاولى لعرض المسرحية في مسرح « افريمان » بهامستيد ، قبل أربعين عاما ، والليلة الاولى التي تبعت ذلك في العام الذي تلى ، في مسرح « هنري ميلر » بنيويورك ، كانتا من أعظم اللحظات في حياتي الفنية ، التي لن أنساها أبدا .

روح مبتهجـة

عندما كنت في الحادية والعشرين من العمر ، كنت طموحا ، مرحا ، ودائب العزيمة ، ولم أكن قد سمعت مطلقا عن أمنية الموت ، كما انني كنت مغتبطا بكوني أجهل انني انتمي الى مدينة هي في طور الاحتضار . أما اليوم فانني أشعر بأن تلك الأمزة تنهال علي من كل اتجاه ، ان اليأس هو الدين الجديد .. انه الطراز الجديد .. انه مبثوث في الكتب التي نقرأها ، والموسيقى التي نستمع اليها ، وأكثر من ذلك بكثير ، في المسرحيات التي نشاهدها . حسنا !.. انني لم أعد في الحادية والعشرين بعد اليوم ، كما انني ما زلت لا أكترث بمأنية الموت . فأنا ما زلت طموحا ومليئا بالغبطة ، وآمل أن تكون معنوياتي مرتفعة . كما انني مازلت

أيضا غير مكترث بكوني أنتمي الى مدينة هي في طور **الاحتضار ‥ ذلك انني لو كنت أكترث** ، اذن لما كان بالمستطاع القيام بأي شيء ازاء ذلك . ولهذا فأنا أعتزم أن أمارس حياتي على النحو الذي أريده، حتى أموت بفعل أسباب طبيعية ، أو تطوح بي قنبلة ذرية قطعا متناثرة .

لقد عرفت في مطلع حياتي ان العالم مليء بالقسوة، والكراهية ، والاثم ، والحب غير المخلص ، واليأس، والدمار ، والقتل . وعرفت أيضا في الوقت نفسه ان كان مليئا بالحنان ، والمسرة ، والحب المخلص ، والفرح ، والاثارة ، والمروءة، والضحك، والاصدقاء. وطيلة حياتي كلها لم أبدل من توازن هذه الظاهرة الطبيعية العابثة . ومع ذلك ، فان شعوري بالسخط يتزايد حينما أرى ان كل مانشأت عليه ، وتمرست على الايمان به ، مطعون ومندد به الآن . ان المسرحية الجيدة البناء ، المسرحية التي لها بداية ، ووسط ، ونهاية ، محتقرة الآن .

كما ان المسرحية الكوميدية الخفيفة التي تستهدف الامتاع ، تستبعد بحجة انها تافهة وعديمة المغزى ، ترى متى كان الضحك عديم المغزى ؟‥

ان البهجة يجب ألا يسمح لها ان تمس أي شيء من هذه السنوات المرعبة . ان علينا جميعا أن نجلس وأن ننتظر الموت ، أو أن نتعجله وفقا لما نشعر به . وفي رأيي ان أكثر الطرق مدعاة للتعجيل به ، الجلوس في مسرح ما ، لمشاهدة مسرحية ضعيفة البناء ، مليئة باللغط ، وممثلة على نحو سيء ، وتتلقى الملاحظات الهادية ، ثم يتوقف عرضها في يوم السبت .

ان الكمال الفني ، مثله مثل أي شيء آخر ، مسألة تتعلق بالمستوى . ان جميع الفنانين المبدعين يكافحون من أجل الوصول الى ذلك المستوى ، في حدود الشكل الذي اختاروه. ان علي أن أعترف بأنني لم أكتب بعد، المسرحية التي كنت أتوق دائما ،وسأظل أتوق لكتابتها . ولكنني سأظل ممتنا للموهبة النفسية التي أهلتني لكتابة مسرحية : « روح مبتهجة » في غضون خمسة أيام ، في أحلك ساعات الحرب .

لقد كانت مسرحية مصممة مسبقا ، بدقة . والواقع ان يوما واحدا فقط، قد مر بين ادراك المسرحية الأصيل وبين اللحظة التي جلست فيها لكي أكتبها . لقد امتلأ بها عقلي ، ومن ثم سكبتها على الورق ‥ وبمضي ستة أسابيع ، كانت قد قدمت في « لندن » لمدة أربع سنوات ونصف . ومازلت أتساءل حتى اليوم عن مدى أهميتها . الزمن وحده هو الذي يقرر ذلك .

ضحك راهن :

ان مسرحية « ضحك راهن » هي مثال فاضح على مايسمى بلغة المسرح بـ « حامل النجم » أي : « ستار فايكل » ‥ الذي يعني انه بالرغم من ان أغلب الادوار فيها جيدة ، فانها ثابتة كلها الى الدور الرئيسي . ان هذا الدور في الواقع ، هو الذي تستند اليه المسرحية وفي خلال جميع الاعوام التي وجد فيها المسرح المعاصر ، كان ثمة الكثير من العبث الذي قيل ، وكتب ، حول شرور طريقة « النجم » هذه . لقد هوجمت بحماس من قبل النقاد المحترفين والهواة، وكتاب المسرح الفاشلين ، ومديري المسارح الفائضي المثالية ، وأحيانا من قبل بعض النجوم أنفسهم .

ان الاصوات الوحيدة التي لم تسمع في هذه المعمعة ، هي أصوات المديرين الماليين الذين يركزون اهتمامهم ــ ربما بسبب خجلهم الداخلي ــ على دفع أجور مسارحهم ، وعمالهم ، وممثليهم ، وجلالات كتابهم ، ونفقات انتاجهم ، ثم الحصول على ربح معقول ، ان هؤلاء ــ على الرغم من ان حكمهم الفني غالبا ما يتعرض للاضطراب، وان اختيارهم للمسرحيات متأثر بدافع الربح المادي أكثر مما هو متأثر باعتبارات النقد ــ يجب ألا يسخر منهم دائما . انهم يعتبرون ان المسرح ، وهذا صواب في رأيي ، هو بالدرجة

الاولى ، مكان للتسلية ، كما انهم **يبذلون كل ما في** وسعهم لتزويد الناس بما يظنون انه المطلوب • ان نظام « النجم » المحتقر هذا ، قد لايبدو لاتباع الدراما الحقيقيين ، اصطلاحا معيبا ، الا انه بالنسبة لكاتب مسرحي كادح لفترة ٤٥ عاما ، أجد لزاما علي أن أقول دون خوف ، انني في هذه المسألة ، بجانب اولئك المديرين كليا •

وعندما تقدم مسرحية جديدة لاتعتمد على نجم رئيسي ، فانها غالبا ما تفوز بملاحظات الاستحسان من قبل الصحافة • ولكنها ـ بصورة عامة ـ لايمكن أن تنال أكثر من ذلك ، ما لم تكن مسرحية جديرة بالانتباه •

ان ملاحظات الاستحسان التي تطلقها الصحافة ، ليست كافية بالنسبة لي • ولو انني اكترثت بمثل هذه الملاحظات ، اذن لقتلت نفسي منذ زمن طويل • لقد كتبت مسرحية « ضحك راهن » بدافع القيام بدور غنائي • لقد كان نجاحها هائلا • ولدهشتي فاز الدور والمسرحية معا بالكثير من الانتباه •

لقد كان ذلك مهدئا الى حد لا أستطيع معه ان أكتب المزيد •

الأدب للحلم بعالم آخر

نشرت صحيفة « انكاوتتر » **الانكليزية النص الكامل •• لمقابلة هامة جدا مع الكاتب الفرنسي** « جان بول سارتر » •• أثارت ضجة كبرى في الاوساط الأدبية العالمية • فقد صرح « سارتر » انه يرى بأن الجوع هو الشر الأعبر ، وبالتالي فان من الواجب أن يكون أزمة الكاتب الاولى • كما قال أيضا ان الأدب كالاخلاق ، يجب أن يكون شاملا ، وبعبارة أخرى ، أن يكتب الكاتب لأكبر عدد من الناس ، فاذا لم يفعل ذلك ، يكون قد وضع نفسه في خدمة الطبقة صاحبة الامتيازات •

ومن أولى ردود الفعل التي أثارها تصريح « سارتر » ماكتبه الكاتب الفرنسي (ايف برجيه) الحائز على جائزة « فمينا » على روايته « الجنوب » التي ترجمت مؤخرا الى الانكليزية بعنوان آخر هو : « الحديقة » ، ومدرس اللغة الانكليزية في ثانويات باربس • كتب « برجيه » يقول : لقد فات سارتر ان الألم المطلق في الحياة ليس الجوع بل الموت • وبكلمة مختصرة ، فان الأدب لم يوجد لتغيير وجه العالم ، وانما ليجعل الناس يحلمون بعالم آخر أجمل وأطيب من عالمنا هذا •

أثر الادب الاميركي

أدلى « جون أوبدايك » أحد روائيي اميركا الشباب ، وصاحب الزاوية الهامة المسماة باسم الحيوان الخرافي « الصنتور » ، بحديث الى الملحق الادبي لصحيفة « التايمز » اللندنية ، تحدث فيه عن التأثير المتبادل بين الآداب الاوروبية والاميركية ، وأشار بشكل خاص الى ان تأثير الادب الانكليزي على الأدب الاميركي ، يتجلى في انه قد (عقّل) ـ بتشديد القاف ـ من جموح هذا الادب •

العضة الكبيرة

صدرت مؤخرا مجموعة دراسات نقدية للروائي الاميركي الشهير « نورمان ميلر » • وقد تناول في هذه الدراسات معظم الاعمال القصصية والروائية الاميركية المعاصرة ، بطريقة جادة حينا ، وتهكمية قاسية أحيانا أخرى • ومما يذكر ان معظم هذه الدراسات ، قد سبق وان نشر في الزاوية النقدية التي يحررها «ميلر» في مجلة « اسكواير » الشهرية منذ سنوات ، والتي دعاها باسم : ـ العضة الكبيرة ـ • والطريف ان القلائل جدا من الادباء الاميركيين ، قد سلموا من عضة ميلر • ومن أشهر روايات ميلر : روايتي «العاري والميت » و « حديقة الغزلان » •

وفاة فليمنغ

توفي أخيرا في مستشفى « كانتربري » بانكلترا ، أحد أعظم كتاب الرواية البوليسية في هذا العصر ، وهو الروائي الانكليزي الشهير « أيان فليمنغ » الذي

اشتهر بخلقه لشخصية « جيمس بوند » ، البطل الذي تدور حوله جميع رواياته .

ومن الجديد بالذكر ان « فليمينغ » هو من أكثر الروائيين المعاصرين شهرة ، وقد توفي عن عمر لا يتجاوز السادسة والخمسين .

مسرحية لبيكيت

من أعمال الكاتب المسرحي (الارلندي) « صموئيل بيكيت » الجديدة التي قدمها المسرح القومي في لندن ، مسرحية اعتمد فيها على أحد أعمال الكاتب المسرحي الكلاسيكي « سوفوكليس » .

ومن الجدير بالذكر ان مسرحية (بيكيت) هذه ، هي غير مسرحيته الاخيرة المسماة « لعب » ، والتي يقوم بتمثيلها ثلاث شخصيات ، تمثل الماضي ، والحاضر ، والمستقبل .

أخبار أدبية من الكويت

* التلفزيون الكويتي يخرج الآن مذكرات بحار للشاعر محمد الفايز (سيزيف) و « مذكرات بحار » ملحمة شعرية تتحدث عن البحر والسفر والغوص في الكويت قديما .

* خليفة القطان . الرسام الكويتي .. يقيم الآن في روما حيث افتتح معرضه للرسم هناك . سبق لخليفة أن أقام معرضه في مصر .

* الاديبة الكويتية هداية سلطان السالم أوفدت من قبل جريدة الرأي العام لتغطي انباء مؤتمر القمة .

* « تاج العروس » تقوم وزارة الارشاد والانباء بتحقيقه وطبعه سيكون في خمسين مجلدا . ينتهي العمـل به خلال اربـع سنوات . سبق للوزارة أن أخرجت عدة كتب من تراثنا العربي القديم .

النشاط الثقافي في العراق

● المدار المغلق ــ ديوان شعر للاديب الكبير الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا ، يصدر قريبا عن احدى دور النشر اللبنانية . كما يعد للطبع كتابا نقديا يحمل اسم « الباب العملاق » .

● الاستاذ عبد الرحمن مجيد الربيعي ، يعـد للطبع مسرحية بعنوان « الحوت » ، وستظهر قريبا عن دار مكتبة النهضة ببغداد .

● مع الشعراء ــ دراسات وذكريات ــ آخر كتاب صدر للاديب حارث طه الراوي . كما سيصدر له قريبا « طه الراوي ــ حياته وآثاره » وهو دراسة شاملة تلم بجوانب حياته ، وتحلل آثاره .

● الحب والحرية ــ ديوان شعر للشاعر محمد جميل شلش ، يصدر هذه الايام عن احدى دور النشر في بيروت .

● الاستاذ علي الخاقاني صاحب دار البيان للطباعة والنشر والتوزيع ستصدر له هذه الايام حملة كتب منها : الجزء الثالث والرابع من موسوعة شعراء بغداد ، والجزء الاول من شعراء الحلة . . . اضافة الى السلسلة التي تصدر شهريا بعنوان « فنون الادب الشعبي » .

● الاقلام ــ اسم المجلة التي ستصدرها وزارة الثقافة والارشاد في العراق .

● شاعرات من العراق المعاصرات ــ دراسة ادبية

شاملة للسيد غازي عبد الحميد الكنين . كتب المقدمة الدكتور بدوي طبانة ، وستصدر قريبا .

● **الشاعر ابراهيم الزبيدي ينهمك حاليا في اعداد** مسودات ديوانه الجديد ... الزبيدي لم يضع عنوان ديوانه حتى الآن .

● يصدر قريبا للدكتورة عاتكة الخزرجي الديوان الثاني باسم « لألاء القمر » ..

● السجود الى الشمس ــ مجموعة قصص مترجمة عن ارسكين كالدويل .. ترجمها عبد الله نيازي ، وستصدر قريبا .

النشاط الثقافي والفني

● « معرض الخريف » اهم تظاهرة فنية يشترك فيها اكبر عدد من الفنانين السوريين ، ويمثل جميع الاتجاهات الفنية الحديثة في سورية ، وقد اشترك في هذا المعرض ٤٠ فنانا من مثالين ومصورين بمجموعة لوحات وتماثيل وصلت الى ١٥٠ عملا فنيا .

اقيم هذا المعرض لاول مرة في جناح وزارة الثقافة في معرض دمشق الدولي ، وقد اقيمت حفلة افتتاح كبرى دعي اليها الفنانون ورجال الفكر والفن في دمشق والمحافظات السورية ، وكان من الطبيعي ان يكون الاقبال على المعرض شديدا لوجوده في قلب معرض دمشق الدولي ، حيث يطلع على المعرض جميع المواطنين والزوار الاجانب ، وهذه بادرة طيبة بان يكون الفن في متناول الجميع .

✻ تسلم الاديب الشاعر « شحود نظامي » رئاسة تحرير مجلة الجندي ..

● معرض رولان خوري : أقيم في هذا الشهر معرض جديد للفنان رولان خوري الذي وصل مؤخرا من روما ، بعد ان امضى فيها بعض الوقت يدرس الفن ويمارسه بشكل مستمر ، وقد رسم في روما لوحة مشهورة لقداسة البابا نالت شهرة عالمية وكتبت عنها الصحف الايطالية والاجنبية .

● وصل من روما الفنانان : خزيمة علواني ، وجوليان قطيني ، وقد درس الاول الديكور المسرحي ، والثاني التصوير .

● اقيمت ندوة فنية جمعت بعض الفنانين السوريين : لؤي كيالي ، دراق السباعي ، جوليان قطيني ، خزيمة علواني ، نوقشت فيها موضوعات فنية عامة اهمها موضوع انشاء اتحاد لخريجي الفنون الجميلة في سورية .

✻ انضم اسماعيل عامود الى هيئة تحرير مجلة الجندي ــ القسم الادبي ــ .

● من المتوقع ان يعلن خلال اسبوع عن اقامة اول مؤتمر للفنانين العرب في سورية ، التشكيليون والتطبيقيون ، برعاية السيد وزير الثقافة والارشاد القومي ، وسينبثق عن هذا المؤتمر اتحاد عام للفنانين ، وقد بدأت اللجان التحضيرية تدرس الموضوع مع كافة الفنانين السوريين وتعد العدة لهذا المؤتمر الاول من نوعه .

● عاد الى البلاد الفنان غازي الخالدي بعد ان امضى عشرين يوما في ربوع اليونان وبلغاريا وتركيا ، حيث مثل سورية في مهرجان الفنون التطبيقية في صوفيا . وقدم دراسات هناك عن الفنون التشكيلية والتطبيقية في سورية ، ونشرت في مجلات وصحف تلك البلاد .

● اقيم المركز الثقافي في ابي رمانة معرضا للفنان سمير عبدو ، أحد اعضاء جمعية اصدقاء الفن التي تأسست منذ عامين ، ولا تزال توالي نشاطها الفني باقامة معارض وندوات فنية من وقت لآخر ، والفنان سمير من الشباب المؤمن برسالة الفن ، ومن الفنانين القلائل الذين ينتجون بشكل مستمر .

● لاول مرة بعد غياب طويل عاد الفنان الاستاذ ناظم الجعفري الى الاشتراك في معارض الدولة بعد ان ابتعد عنها سنوات عديدة ، وقد اشترك هذا العام بعدة لوحات فنية زيتية رائعة في معرض الخريف في جناح وزارة الثقافة والارشاد القومي في معرض دمشق الدولي ، والفنان الجعفري غني عن التعريف وهو احد الاساتذة الاول في الفن ومن رواد الفن الانطباعي الذي يحترم الواقع ويحافظ على الشكل الطبيعي بألوان منسجمة ذات طابع شخصي عرف به الفنان من مزن بعيد .